

الباب الأول

مبادئ ومفاهيم

obeikandi.com

الفصل الأول

حول المنهج

obeikandi.com

من السردية إلى التداولية

1- تأطير:

حققت الدراسات السردية نجاحا كبيرا خلال ما يزيد عن نصف قرن من الزمن تمكنت فيه من بناء مجموعة من التصورات والمفاهيم التي تقارب النص السردى في مستوياته المختلفة، وتحليلاته المتباينة. كما أمدت مجال النقد بمجموعة من الأدوات الإجرائية التي تعتبر فعالة في ملامسة المقولات الأساسية التي يقوم عليها النسق السردى.

نشأت السرديات وتطورت ضمن علم عام سمي بـ "الشعرية"، وهو علم جعل من الخلفية البنيوية ركيزة له في تكوين أدواته وأجرأ مفاهيمه. وكما هو معلوم فالشعرية أو "علم الأدب" كما عرف في بدايته كان يهدف إلى دراسة الأدب في ذاته مركزا على المقولات التي تجعل من أي نص أدبا أي "أدبية الأدب". وقد كانت الدراسات الشكلانية الروسية سباقة في هذا المجال بما أنجزته من دراسات خلال العشرينيات من القرن الماضي وهي تضع أسس علم جديد يتجاوز المقاربة التاريخية للنص الأدبي، وجعلت اهتمامها ينصب على النص ولا شيء غير النص، وهكذا كان لمجموعة من الدراسات التي قدمها رواد الشكلانية - تينيانوف، توماشوفسكي، شيلوفسكي، ياكوبسون، وغيرهم - دورا فعالا في بلورة المقاربة الشعرية الشكلانية.

بالموازاة مع هذه الدراسات الشكلانية بدأت تبلور مبادئ اللسانيات الحديثة التي وضع أسسها العالم اللساني السويسري فردناند دوسوسير، وهي الدراسات التي حاولت تجاوز المناهج الفيلولوجية للتعامل مع اللغة كبنية مغلقة مكتفية بذاتها. وكان لظهور كتاب دوسوسير "محاضرات في اللسانيات العامة" أثره الفعال في توجيه الدرس اللساني الحديث والاهتمام بمستويات اللغة المختلفة التي حددها دوسوسير: الصوتي، الصرفي، المعجمي، التركيبي، الدلالي. كما ساهمت الثنائيات

الأساسية التي وضعها في بلورة خصوصية المقاربة اللسانية، خصوصا ثنائيتا الدال/المدلول، اللغة/الكلام.

هذه التراكمات المعرفية المتوازية وجدت أرضية خصبة في العديد من العلوم الإنسانية التي عملت على استثمارها واختبار قدراتها الإجرائية في المقاربات النصية. فظهرت اجتهادات ليفي ستراوس في مجال الأنثروبولوجيا، ولاكان في مجال التحليل النفسي، وفوكو وألتوسير في مجال الفلسفة؛ وكلها دراسات حققت نجاحات كبيرة في مجالها، وحفزت الدرس الأدبي النقدي على مواصلة المسار النيوي من خلال المقاربة الشعرية التي تركز اهتمامها على النص وإقصاء المؤلف والظروف المحيطة بالإنتاج.

وجدت الدراسات الشكلانية، وكذا اللسانيات الحديثة إقبالا كبيرا في فرنسا خلال الستينات من القرن الماضي، وظهر مجموعة من الرواد الذين عملوا على مواصلة المشوار الشكلاني، ومنحه الشرعية العلمية في الدرس الأدبي، خصوصا بعدما حظيت النصوص الشكلانية بالترجمة من الروسية إلى الفرنسية على يد ترفتان تودوروف. هذا الأخير الذي شكل إلى جانب بعض الأسماء الفرنسية الأخرى البداية الحقيقية للسرديات الحديثة. وتكفي الإشارة إلى المقالات الصادرة في العدد الثامن من مجلة "تواصل"، لمعرفة الخط الحقيقي الذي كانت تسير فيه هذه الدراسات. فقد كانت تصورات تودوروف ورولان بارت وجرار جنيت، ترسم المسلك الحقيقي لمسار السرديات في إطارها الشعري. ولم تكن محاولات غريماش وكلود برومون تختلف عن سابقتها كثيرا. فقد اعتمدت نفس الخلفيات المعرفية إلا أنها كانت تجد في التحول في اتجاه السيميوطيقا متنفسا آخر للمقاربة السردية.

القاعدة الأساسية التي قامت عليها المقاربة السردية هي قاعدة شكلانية، تجعل من المبنى موضوع دراستها، وتقضي جانب المعنى، معللة ذلك بأن جمالية الأدب أو أدبية الأدب تتجلى في البناء الشكلي الذي يتمظهر فيه الإبداع الأدبي. وبالتالي كانت مقاربة النص السردية تقوم على وضع ثنائية شبيهة بثنائية الدال/المدلول اللسانية، وثنائية المبنى/المعنى الشكلانية. فأعلن تودوروف في مقالته بمجلة "تواصل" أن للعمل الأدبي مظهرين: فهو قصة وخطاب في

الوقت نفسه⁽¹⁾، وعلى الرغم من الإشارة إلى القصة من خلال منطق الأفعال والشخصيات فهو يركز على جانب الخطاب من خلال المقولات الأساسية لكل خطاب سردي: زمن السرد، مظاهر السرد، وأنماط السرد⁽²⁾. وهي التحليلات السردية التي أعاد صياغتها في كتابه "الشعرية"⁽³⁾ من خلال الحديث عن المظهر اللفظي، وركز فيه على الزمن والصيغة والسرد. وهو نفس التصور تقريبا الذي يؤسسه رولان بارت في مقاله "التحليل البنيوي للسرد"⁽⁴⁾ بالعدد نفسه من مجلة تواصل.

تتسع هذه الأرضية السردية أكثر مع الدراسة التي قدمها جرار جنيت بداية السبعينات في "خطاب المحكي"⁽⁵⁾، وقد اعتبرت هذه الدراسة بمثابة المؤسس الحقيقي للسرديات الحديثة بما قدمته من مفاهيم وأدوات، وما أثارته من نقاشات واجتهادات لاحقة على مدى عقدين من الزمن تقريبا⁽⁶⁾، ساهمت بدورها في تحقيق تراكمات مهمة بلورت خصوصيات الاتجاه بصورة واضحة جلية، سواء في الدراسات الفرנקوفونية أو الأنكلوفونية. وقد كان للدراسات العربية حظها الوافر في تبني المنهج والاجتهاد في تطبيقه على مجموعة من النصوص السردية العربية القديمة والحديثة⁽⁷⁾.

2- أزمة السرديات وإكراهات الانفتاح:

أثارت السرديات وهي تهتم بالجانب الشكلي من الأدب نقاشا حادا ارتبط بالتساؤل أولا عن إبعاد القصة والاهتمام بالخطاب فقط. ومعلوم أن القصة

T. Todorov. Les catégories du récit littéraire, in communication 8, éd point, (1) 1966.

Ibid., p. 142. (2)

T. Todorov. Poétique, éd point, 1973. (3)

R. Barthes. Analyse structurale du récit, in communication 8, éd point, 1966. (4)

G. Genette. Discours du récit, in figures 3, éd seuil, Paris, 1972. (5)

(6) نشير هنا إلى مجموعة من الانتقادات التي وجهت إلى جنيت بعد صدور كتابه خطاب المحكي، ومن أهمها مقال مايك بال في مجلة poétique، حول السرد والتأثير، وكذا ردود دوريت كوهن في كتابها: la transparence intérieure. وهو ما دعا جنيت إلى إصدار كتاب آخر في نفس الاتجاه، Nouveau discours du récit.

(7) نحيل هنا على الدراسات التي قام بها كل من سعيد يقطين، عبد الله إبراهيم، يمنى العيد، مالطي دوغان، وغيرهم.

ممكناتها وجدت إقبالا كبيرا في الدراسات السيميوطيقية التي تزعمها غريماس في فرنسا. وقد كشفت هذه الدراسات عن حيوية الجانب المورفولوجي في النص السردى والذي لا يقل أهمية عن الجانب التركيبى المتعلق بالخطاب؛ وهو ما دفع بعض المهتمين بالسرديات إلى البحث عن مسوغ للمزاوجة بين القصة والخطاب في المقاربة السردية. وكانت للدراسات الأنكلوفونية الدور الأساسى في هذا الانفتاح على القصة⁽¹⁾، واستطاعت أن تجد مكانا لمقاربة المستوى المورفولوجي من خلال الحدث والفضاء والشخصيات؛ وكانت هذه المزاوجة بمثابة متنفس جديد للسرديات من أجل توسيع مجال اشتغالها وهي تتحدث عن مفهوم "السردية". غير أن هذا الانفتاح الجزئى بقي دائما مثار أخذ ورد، خصوصا في ما يتعلق بالإضافات المتاحة للدراسات السردية التي بقيت في مجملها رغم الانفتاح النسبى وفيه للخلفية البنيوية التي تقصى كل مؤثر خارجي في مقارنة النص الأدبى. مما دفع بعض المهتمين إلى التفكير في الانفتاح على بعض العلوم الإنسانية التي يمكنها أن تساهم بشكل أو بآخر في تطوير المنهج السردى؛ فأصبحنا نصادف تسميات جديدة من قبيل: السوسيو - سرديات، والسيكو - سرديات، والسرديات الأنثربولوجية، وكل اتجاه يبحث عن المسوغات التي يبرر بها هذا الانفتاح دون أن يفقد المنهج انسجامه وخصوصياته، أو يزيغ عن أهدافه التي ترتبط بالنص السردى وطبيعته.

ليس هدفنا هنا هو متابعة هذه التحولات التي عرفتها السرديات وهي تنفتح على العلوم الإنسانية، أو تقييم ما حققته من نتائج في هذا المجال أو ذاك. فكل اتجاه له مبرراته وخلفياته، وشرعيته تنبع من خلال النتائج التي حققها بانفتاحه ومدى إقناع رواده بهذه النتائج.

اشتغلنا بالسرديات البنيوية خلال العقد الأخير من القرن العشرين ونحن نقارب نصوصا روائية عربية⁽²⁾، وأشرنا أثناء الدراسة أن الجانب الشكلي وحده

(1) توجهت الدراسات الأنكلوفونية نحو الانفتاح على الجانب القصصى المورفولوجي، ومن أبرز الدراسات نشير إلى Sh.R. Kenan, narrative fiction, Methuen, 1983.

(2) سعيد جبار، الخطاب في روايات سحر خليفة، رسالة دبلوم الدراسات العليا، مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط 1993.

غير كاف في المقاربة؛ وآثرنا في الانفتاح أن نبقي قرييين من المنهج دون أن نفتح على العلوم الإنسانية الأخرى. فكان السؤال المحوري لدينا آنذاك هو: كيف نمر بما هو شكلي إلى ما هو دلالي؟ وقد سبقت الإشارة إلى هذا التعالق بين المظهرين: اللفظي والدلالي في دراسة تودوروف حول الشعرية. غير أنه وهو يستحضر ما هو دلالي ركز على سؤالين دون أن يحدد طريقة مقاربتهم: كيف يدل النص؟ وعلى ماذا يدل؟

اهتمامي بالسرديات إذن كان منصبا على هذا الانتقال مما هو لفظي إلى ما هو دلالي في إطار سردي خالص. وقد وجدت السؤال الأول "كيف يدل النص؟" في ذلك الوقت قريب المنال دون أن أنزاح عن الشعرية كثيرا. ووجدت في الكتاب الذي قدمه تودوروف في بداية الثمانينات "مبخائيل باختين: المبدأ الحوارية"⁽¹⁾، خير معبر نعبّر من خلاله من اللفظي إلى الدلالي ونحن نجيّب عن السؤال السابق في إطار ما أشرنا إليه بـ "شكل الدلالة".

لم تكن الدراسات الباختيّنية بمنأى عن الشعرية الشكلانية، بل كانت تمثل الوجه الثاني منها. فقد نشأت وترعرعت في موازاة مع الشكلانية الروسية غير أنّها لم يكتب لها الانتشار إلا بعد ترجمة بعض نصوص باختين من الروسية إلى الفرنسية أو الإنجليزية. وتمثلت أهم أعماله في "شعرية دوستوفسكي"⁽²⁾، ثم "جمالية الرواية ونظريتها"⁽³⁾ و "فرانسوا رابلي والثقافة الشعبية في القرون الوسطى"⁽⁴⁾. دون أن ننسى "الماركسية وفلسفة اللغة"⁽⁵⁾. وكلها مؤلفات تداخلت مع بعضها وتكاملت لتقدم من جهة تصورا جديدا حول مفهوم الرواية وأصولها غير البورجوازية، كما تقدم من جهة ثانية تصورات منهجية في مقاربة جانب الدلالة في النص السردية بصفة عامة والرواية بصفة خاصة.

لقد أسعفتنا هذه الدراسات في توظيف مجموعة من المفاهيم الجديدة التي تساهم في مقاربة الخطاب السردية، وهي مفاهيم تنقلنا بانسجام تام مما هو لفظي

(1) T. Todorov, Mikhaïl bakhtine, principe dialogique, éd seuil, Paris, 1981.

(2) Mikhaïl Bakhtine, poétique de Dostoïevski, éd seuil, Paris, 1970.

(3) Mikhaïl Bakhtine, esthétique et théorie du roman, éd Gallimard 1978.

(4) Mikhaïl bakhtine, l'œuvre de François Rabelais et la culture populaire au moyen âge et sous la renaissance, éd Gallimard 1970.

(5) Mikhail Bakhtine, Marxisme et la philosophie de langage, éd de Minuit, 1977.

إلى ما هو دلالي مثل التناس، التعدد اللغوي، البوليفونية، وأسلوبية الخطاب التي ركز فيها باختين على دور الخطاب غير المباشر الحر في تفعيل تداخل الأصوات في الملفوظ الواحد.

انطلق باختين من انتقاد الطرح الشكلي الذي حاول أن ينسخ علما للخطاب "الشعرية" انطلاقا من علم اللغة "اللسانيات"، وهو نسخ مستحيل في نظره⁽¹⁾ ليؤكد على أن "النص" هو موضوع يوحد كل العلوم الإنسانية، على الرغم من تعددها وتباينها. غير أن باختين يتوقف من بين هذه المنظورات المختلفة التي يمكنها أن تقارب النص عند منظورين اعتبرهما أساسيين: المنظور الأول هو لساني، والآخر يحيل على تخصص لا يحمل في البداية أي اسم، وأشار إليه في كتاباته بـ "العبر لسانية"، وهو يشبه في مقاربتة إلى حد بعيد "التداولية"⁽²⁾. وكان في البداية يرى أن هذا التخصص الجديد يمكنه أن يحل محل اللسانيات⁽³⁾. وأهم ما يميز الدرس العبر لساني هو أنه لا يدرس كل ملفوظ في تفرد وخصوصياته، بل يبحث في قوانين اشتغاله بطريقة مغايرة للدرس اللساني.

يظهر من هذا الطرح أن باختين كان متجها نحو وضع أسس أولية للتداولية كمقاربة خاصة للخطاب باعتباره ملفوظا يمرر معرفة بين المتكلم والمستمع، وطامحا إلى استكشاف الطرق التي يشتغل بها الخطاب في كليته من أجل تمرير هذه المعرفة التي يحملها. غير أن باختين انزاح عن المسار اللغوي التداولي الذي كان يرسمه، وانقاد خلف الخلفية المعرفية الفلسفية التي كانت توجه تصويره المنهجي وهي الخلفية الماركسية التي جعلته يرى بأن هذا العلم يكون قريبا من السوسيولوجيا دون أن يكون السوسيولوجيا نفسها. وبالتالي فإن مقاربتة للملفوظات ارتكزت على فرضية اعتبارها ذات حمولة اجتماعية تعكس منظورا إيديولوجيا لفئة اجتماعية معينة. ومن خلال هذا التفاعل بين الملفوظات داخل الخطاب الواحد تتعد الأصوات وتتنوع اللغات.

T. Todorov, Mikhail Bakhtine, Principe dialogique, p. 43. (1)

Ibid., p. 43. (2)

Ibid., p. 43. (3)

إن الطرح الذي قدمه باختين يحمل في طياته ذاك البعد الانفتاحي للمنهج الشكلي الذي هيمن على الدرس الأدبي خلال عقود من الزمن، وفتح الباب على مصراعيه من أجل مقاربات منهجية تتجاوز اعتبار النص إنتاجا لغويا خالصا، لتجعل منه إطارا متعدد الأبعاد وذا بعد معرفي يضمن جسر التواصل بين المرسل والمتلقي، ويدعو كل دارس إلى البحث في هذه الميكانزمات المنتجة لمعرفة النص، والموجهة لإدراكها من طرف المتلقي وهو يلتقط الموجهات التي يعتمد عليها المرسل في تمرير خطابه، ويبعد إنتاجها انطلاقا من السياق المعرفي العام الذي يجمع المرسل بالمتلقي.

باختين إذن كان سباقا إلى الانزياح في المقاربة السردية عن اللسانيات إلى التداولية. وأكد على دور ما أسماه العبر لساني في مقاربة مستويات أخرى من النص. غير أن طموح باختين لم يتحقق مع ما قدمه من دراسات، بل وجد ضالته لدى جيل لاحق ألح بعمق على التداولية وعمل على ترسيخ نظريتها وتطوير آلياتها في مقاربة الخطاب اليومي كما الخطاب الأدبي. فهل يمكن مد الجسور بين السرديات والتداولية؟

3- السرديات والتداولية، أية علاقة؟

3- 1- التداولية: تصورات ومبادئ:

3- 1- 1- موضوع التداولية:

أشار باختين خلال العشرينات من القرن الماضي إلى علم لم يمنحه اسما معينا، لكنه ميزه بكونه يتجاوز في اشتغاله المستويات التي حددها اللسانيات كموضوعات لها، وأشار إلى هذه المقاربة بـ "العبر - لسانية". وبعد مرور عقد من الزمن تقريبا على إشارة باختين، يأتي شارل موريس سنة 1938 ليميز بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة، وحددها في: علم التركيب، وهو الذي يهتم بدراسة العلاقات بين العلامات، وعلم الدلالة، ويركز على الدلالة التي تتحدد بعلاقة تعيين المعنى الحقيقي القائمة بين العلامات وما تدل عليه، وأخيرا التداولية، وتعنى في رأيه بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها⁽¹⁾. غير أن تصوره للتداولية كان لا يزال جنينيا، وحصر مجال

(1) Ibid., p. 43.

اهتمامها بدراسة ضمائر المتكلم والمخاطب، والموجهات الزمانية والمكانية، والتعبير التي تستمد دلالتها من معطيات خارجة عن اللغة نفسها، أي من مقام التواصل.

وعلى الرغم من الإشارتين المبكرتين لهذا التخصص من قبل باختين وموريس، فإنه لم يكتب له الظهور رسمياً، وفي صورة منهجية وأكثر فعالية إلا في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين. وقبل أن نتوقف عند أهم الاتجاهات التي عرفتها التداولية في تطورها على مسار ثلاثة عقود نشير بإيجاز إلى مجموعة من التعريفات التي أعطاها لها الدارسون؛ لأنها تعريفات كفيلة بتقديم تصور عام عن الحقول والجوانب التي تهتم بها التداولية في مجال اللغة.

- يشير بال هيليل Bal-Hillel إلى أن "التداولية تهتم بالرباط الأساسي للتواصل في اللغة الطبيعية، كما تهتم بالمتكلم والمستمع، وبالسباق اللغوي، والسياق الخارج لغوي... وجاهزية المساهمة في الفعل التواصلية"⁽¹⁾.
 - في حين يرى فرانسيس جاك Francis Jacques أن "التداولية تقارب اللغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في الوقت ذاته"⁽²⁾.
 - ويرى سبيرر وويلسون أن التداولية "تهتم بكل المظاهر الملائمة لتأويل الجمل تأويلاً كاملاً في سياقات معينة، وهذه المظاهر قد تكون مرتبطة بالشفرة اللسانية أو غير مرتبطة بها"⁽³⁾.
 - أما أنكومبر Anscombe ودوكر وريكاناتي فيؤكدون أن التداولية "تنضاف إلى علم الدلالة لتعيد الاعتبار للمظاهر التي لا تهتم بها الدلالة: أي وصف الوضعية التواصلية وشروط نجاح التواصل"⁽⁴⁾.
- تلتقي هذه التعريفات في جوانب أساسية تعتبر بمثابة الركائز المهمة في التداولية، فهي جميعها تؤكد على أن التداولية تتجاوز الجوانب اللفظية والتركيبية والدلالية للغة، لتهتم بالجانب التواصلية، وهو الذي يستدعي المرور من الدلالة التي

(1) آن روبول، وجاك موشلار، التداولية اليوم، ترجمة: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، منشورات المنظمة العربية للترجمة، ص 29.

(2) Martine Bracops; Introduction à la pragmatique; éd de boeck, 2005, p. 13.

(3) Ibid., p. 13.

(4) Ibid., p. 28.

تقدمها الجملة مباشرة إلى الدلالة التي يمكن استنتاجها من خلال السياق الذي يربط المتكلم بالمستمع. كما أن السياق هنا يتجاوز معناه اللساني الضيق الذي ينحصر في السياق اللغوي، ليشمل سياق التواصل بصفة عامة فيتجاوز ما هو لساني إلى ما هو خارج لساني؛ وقد يتضمن الخارج لساني ما هو اجتماعي أو نفسي في العملية التواصلية.

ما يمكن استخلاصه من هذه التعريفات هو أن التداولية هي نظرية دلالية تدمج إلى جانب الشفرة اللسانية المظاهر المرتبطة بالتلفظ نفسه معتبرة أن الملفوظ هو ناتج عن اجتماع المعلومات اللغوية المنتمية إلى المكونات اللسانية للجملة (المورفيمات، الوحدات المعجمية)، والمعلومات الخارج لسانية التي تنتمي إلى المكونات التداولية أو البلاغية المندمجة في الدلالة⁽¹⁾.

يتبين من خلال التعريفات أن التداوليين حاولوا وضع تصور للحقل الذي ستهتم به التداولية، غير أنهم تركوا الحقل مفتوحا من كل الاتجاهات. فالانتقال من المستوى الدلالي إلى المستوى التواصلية استدعى مفهوم السياق الذي يتضمن مظاهر متعددة، ترتبط باللغة أولا، وبالجانب النفسي ثانيا سواء بالنسبة للمتكلم أو المستمع، ليصل إلى الجانب الاجتماعي وما يطرحه من مساهمة في بناء الدلالة في الملفوظ التواصلية. وقد ساهم هذا الانفتاح في ظهور اتجاهات متعددة في مجال التداولية، اهتم كل اتجاه بجانب من جوانب العملية التواصلية، فبدت هذه الاتجاهات متقاربة في الموضوع الذي تعالجه، ومتباينة قليلا أو كثيرا في طريقة المعالجة وصياغة أدوات المقاربة الإجرائية. وهي في علاقتها مع بعضها تقدم للمهتم صورة عامة حول السيرة التطورية التي عرفتها التداولية منذ إعلان شارل موريس عن نشأة هذا العلم. وقد حصرت مارتين براكوب Martine Bracops هذه السيرة التطورية في أربعة اتجاهات امتدت على مدى ستين عاما تقريبا⁽²⁾، هي كالآتي:

- 1930-1940: التداولية الراديكالية الشكلانية، وبتزعمها كل من بورس وموريس.

Ibid., p. 28. (1)

Ibid., p. 28. (2)

- 1940-1980: التداولية الفلسفية أو فلسفة اللغة، ومن روادها أوستين وسورل وغرايس.

- 1980-1990: وهي مرحلة عرفت اتجاهين متوازيين:

أ. التداولية المعرفية، وتزعمها كل من ويلسون وسبيربر.

ب. التداولية المندجة، وقاد هذا الاتجاه الفرنسي أوسويلد دوكرو.

قدمت هذه المسارات الأربعة مجموعة من المفاهيم والأدوات الإجرائية لمقاربة التلفظ أو الخطاب، وكانت كلها تعمل على تجاوز الدلالة اللسانية إلى الدلالة التداولية. وكل اتجاه عمل على وضع الفرضيات أو المسلمات الأساسية التي ينطلق منها للمرور مما هو لساني إلى ما هو تداولي. ومن هذه الاتجاهات من حاول تجاوز خطاب الحياة اليومية الذي يعتبر الموضوع الأساسي للتداولية لوضع تصور تداولي لمقاربة الأعمال التخيلية. ولن نتبع هنا هذا المسار التطوري بالتفصيل، لأن هدفنا ليس هو التطورات التي حققتها التداولية، إنما هو معرفة أهم الأسس المنهجية التي اعتمدها في مقاربة الخطاب، خصوصا خطاب التخيل، لنرى مدى وجود إمكانية المرور مما هو سردي إلى ما هو تداولي على المستوى المنهجي التحليلي.

3-1-2- رهانات التداولية:

اصطدم علم الدلالة اللساني بمجموعة من الإكراهات المتعلقة بتفسير وظائف مجموعة من الموجهات déictiques المرتبطة بالمتحاورين كضماير المتكلم والمخاطب (أنا - أنت)، وظروف الزمان والمكان (الآن، هنا، هناك..)، وهي الموجهات التي تحيل على مكونات التلفظ ووضعيته، وقد أكد بنفست أن هذه الموجهات لا يقتصر دورها على الاقتصاد، بل يمكنها أن تدل على الدور الذي يأخذه المتكلمون داخل الملفوظ، وهو ما يمثل في نظره نوعا من المرونة في جوهر اللغة الإنسانية، وقدردتها على الكشف عن الذاتية، إلى جانب ترهين التلفظ على المستويين الزماني والمكاني. وبناء على هذه الموجهات راهنت التداولية على أن الجمل في تأسيسها للدلالة قد تتجاوز الدلالة الملموسة المباشرة التي تقدمها الوحدات المعجمية في علاقتها مع بعضها إلى دلالات ضمنية يمكن التوصل إليها من خلال الاستلزامات الحوارية، وتقتضي استحضار مكونات أخرى سياقية داخلية وخارجية تمكن المتلقي

من الانتقال من الدلالة الأولى (المباشرة) إلى الدلالة الثانية (الضمنية). فالكلام بالنسبة إليها أكبر من أن يكون مجرد تطبيق خالص للسان، فهو يوظف شفرات غير لسانية إلى جانب الشفرات اللسانية ليولد شفرات جديدة تربط الجسور بين الدلالة المجردة في الملفوظ الملموس بالدلالة الضمنية التي ترتبط بسياق التلفظ. وبالتالي فهو يتوفر على موقع في سياق محدد بمعطيات زمكانية وسوسيو تاريخية؛ والتداولية تعمل من أجل الكشف عن طريقة تفاعل هذه المعطيات مع النسق اللغوي.

ومن أجل ذلك وضعت الدراسات التداولية في اعتبارها المنهجي مجموعة من المفاهيم اعتبرتها مركزية في مقارنة الملفوظ أهمها: السياق، أفعال الكلام، الاستلزام الحوارية، الملاءمة، الاستدلال، الموجهات، الاقتضاء، المقصدية... وهي كلها في نظر التداوليين مكونات أساسية تساهم في وصف بناء الملفوظ الذي يحاول أن يؤسس علاقة مع العالم المحيط به، من خلال التعبير عن قضايا أو أحاسيس تجاه العالم الخارجي.

تتأسس الدلالة التداولية سواء لدى المرسل أو المتلقي انطلاقاً من مجموعة من الكفايات التي يفترض توفرها في كل مستعمل للغة، وتتمثل في مجموعة منظمة من المعلومات والميكانزمات السيكلوجية التي يمكن تصنيفها كالاتي:

- الكفاية اللغوية: وتعني هذه الكفاية التمكن من لغة معينة ونطقها ومعرفة معجمها وبنائها التركيبية.
- الكفاية الموسوعية: وتشير إلى المعارف المختلفة القائمة على التنوع اللامتناهي للموضوعات التي يمكن أن نتحدث عنها في لغة معينة.
- الكفاية المنطقية: وترتبط بالقدرة على القيام باستدلالات منطقية لفهم وإدراك معطيات فكرة معينة، والقدرة على ربط الأفكار فيما بينها.
- الكفاية البلاغية التداولية: وتتعلق بالميكانزمات التي يوظفها مستعمل اللغة من أجل بلوغ المقصد الذي يرمي إليه.
- وتتوحد كلها في كفاية عامة توّطر العلاقة التي تربط المرسل بالمتلقي وهي الكفاية التواصلية.

تراهن التداولية إذن على مقارنة المعنى أو الدلالة، ولكن ليس المعنى الحرفي المباشر الذي تؤسسه الجملة من خلال العلاقات التركيبية والدلالة التي تقدمها

الألفاظ، بل تراهن على المعنى الضمني أو الرسالة المتضمنة التي يتضمنها الملفوظ دون أن يشير إليها مباشرة، وهي رسالة يؤسسها المتكلم عبر نسقية خاصة يتوحد فيها اللساني بالسياقي والاجتماعي، ويدركها المتلقي عبر نسقية شبيهة نسبيا بنسقية المتكلم وتشكل هذا الميثاق التواصل بينهما والذي يساهم في عملية التواصل ونجاحها.

3- 1- 3- التداولية، تصورات ومفاهيم:

يتضح من خلال المسار التطوري المشار إليه أعلاه أن المقاربة التداولية قامت على الأسس التي وضعتها فلسفة اللغة مع كل من أوستين وسيرل وغرايس. فقد عمل كل واحد من جهته على تقديم رؤية لمقاربة اللغة في إنجازاتها المختلفة. ابتداءً أوستين أولاً بالتمييز بين الجمل الوصفية والجمل الإنشائية معتبراً أن الأولى تخضع لحكم الصدق والكذب بينما الثانية ترتبط بالنجاح والإخفاق. غير أن أوستين سرعان ما سيكشف لا جدوى هذا التقسيم، وينزاح عنه نسبياً من خلال التأكيد على أن "كل جملة تامة مستعملة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل، ويميز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية: العمل الأول هو العمل القولي، وهو الذي يتحقق ما إن تلتفظ بشيء ما؛ أما الثاني، فهو العمل المتضمن في القول، وهو الذي يتحقق بقولنا شيئاً ما؛ وأما الثالث فهو عمل التأثير بالقول، وهو الذي يتحقق نتيجة قولنا شيئاً ما"⁽¹⁾. ومن ثم فإن كل جملة عند التلطف بها في نظر أوستين توافق على الأقل إنجاز عمل قولي وعمل متضمن في القول، وأحياناً توافق القيام بعمل تأثير القول⁽²⁾.

هذه الأرضية الفلسفية التي وضعها أوستين ستكون منطلق أحد أتباعه في الاتجاه "جون سيرل"، الذي عمل على تطويرها من خلال الاختصار من جهة على العاملين الأولين في الجملة "عمل القول، وعمل متضمن القول"، مركزاً على الجانب الثاني من العمل. كما عمل من جهة ثانية على تحديد شروط نجاح العمل المتضمن في القول، ولخصها في خمسة شروط أساسية هي:

(1) Martine Bracops; Introduction à la pragmatique.

(2) التداولية اليوم، ص 32-33.

أ. القواعد التحضيرية: المرتبطة بمقام التواصل.

ب. قاعدة المحتوى القضوي: الذي يقتضي إسناد عمل ينجز في المستقبل.

ج. القواعد الأولية: المرتبطة بالاعتقاد بالخلفية المنطلق منها.

د. قاعدة الصدق: أن يكون المتكلم صادقا ونزيها في ما يقوله.

هـ - القاعدة الجوهرية: تحدد نوع التعهد الذي قدمه المتكلم.

و. قواعد المقصد والمواضعة: وتحدد مقاصد المتكلم والكيفية التي ينفذ بها هذه المقاصد بفضل المواضعات اللغوية⁽¹⁾.

تأتي مفاهيم غرايس مكملية للمقاربة الفلسفية للغة. فقد عوض غرايس مفهومي عمل القول، وعمل متضمن القول، بمفهومين جديدين يدوان أكثر إيجاء وتركيزا وهما: الدلالة الطبيعية والدلالة غير الطبيعية، معتبرا أن الدلالة غير الطبيعية تقوم على التأويل وتأسس على الاستدلال؛ ومن خلالها "ينوي المتكلم وهو يتلفظ بجملته إيقاع التأثير في مخاطبه، بفضل فهم هذا المخاطب لنيته"⁽²⁾، ويظهر أن الدلالة غير الطبيعية ترتبط بإرادة القول "vouloir dire" الذي يقصده المتكلم. ويخلص غرايس من خلال هذا التمييز إلى تمييز آخر، حيث يقابل بين الجملة والقول، فالأولى هي سلسلة الكلمات التي يمكن لأي شخص أن يتلفظ بها في ملابسات مختلفة، ولا تتغير بتغير الملابس، بينما الثاني "القول" هو حاصل التلفظ بجملة وهو يتغير بتغير الملابس والقائلين⁽³⁾.

ركز غرايس في مقاربه على الدلالة غير الطبيعية باعتبارها تمثل الجانب المهم من المحادثة، لأنها دلالة غير تواضعية على عكس الدلالة الطبيعية التي تحتفظ بجانبها اللساني التواضعي. ولهذا فمنطق المحادثة بين المتحاورين يقتضي ضرورة عمل كل واحد منهما من أجل تمكين الآخر من فهم مقصوده ونيته، وهذا المنطق في نظر غرايس يقوم على مبدئين أساسيين: مبدأ التعاون، ومبدأ الاستلزام الخطابي. يقوم المبدأ الأول على أربع قواعد أساسية، يفترض أن يحترمها المتخاطبون لإنجاح التواصل بينهما، وهي: قاعدة الكم، قاعدة الكيف، قاعدة النوع، قاعدة العلاقة.

(1) نفسه، ص 32.

(2) نفسه، ص 34.

(3) نفسه، ص 53.

وسنعود للتفصيل في خصوصيات هذه القواعد عند الحاجة. أما الاستلزام الخطابى فيحدده غرايس من خلال التمييز في القول الواحد بين ما قيل، وما تم نقله، وما تم تبليغه. فالدلالة هي ما قيل، والاستلزام الخطابى هو ما تم تبليغه⁽¹⁾، وتتولد الاستلزمات الخطابية عن طريق الاستدلال كعملية منطقية تنطلق من عدد معين من المعلومات المعروفة لتتولد منها نتيجة أو نتائج جديدة⁽²⁾.

أعطت هذه الأرضية الفلسفية نفسا جديدا لمقاربة اللغة، وحاولت أن تخلصها من بوتقة الانغلاق الوصفى الذي عرفته مع الدراسات اللسانية البنيوية. وقد كان لهذا الإرث الفلسفى دور فعال في التطور السريع الذي ستعرفه التداولية في العقدين الأخيرين من القرن العشرين. ويمكن القول إن هذا التطور سار في اتجاهين مغايرين: - اتجاه نلمس فيه التأثير الفلسفى في مقاربتة، لكنه حاول أن يبقى وفيا للمقاربة اللسانية، وهو الذي مثلته التداولية الفرنسية بزعامة أوسوالد دوكرو، وسميت بالتداولية المندمجة، وهي مقاربة ترميزية بالدرجة الأولى.

- اتجاه استفاد من العلوم المعرفية الحديثة وما حققته من تطورات، فاستفاد منها في إقامة ما عرف لاحقا بالتداولية المعرفية، وقد تبلور من خلال أعمال سبيريبر وويلسن، وتحاول أن تعيد الاعتبار للعلاقة بين اللغة ومستعملها من خلال جعلها واحدة من النسق الواسع لمعالجة المعلومة⁽³⁾.

انطلق دوكرو من مفهوم الاستلزام، ويميز فيه بين الاستلزام الذي يركز على مضمون الملفوظ، وذلك الذي يركز على الفعل التلفظى. فالأول يرتبط بوضعية إثارة الانتباه إلى شيء لا نريد الإشارة إليه مباشرة، فنعرض عوضه أشياء أخرى قد تكون أسبابا له أو نتائج مترتبة عليه⁽⁴⁾. أما الثانى فهو يتعلق بمضمن الخطاب. وقد كان مفهوم الاستلزام عند دوكرو دافعا إلى استحضار مفهوم آخر اعتبره ضروريا في التواصل بين المتخاطبين وهو الاقتضاء، *présupposition*، ويعني به المضمون الذى تريد الجملة أن تبليغه بكيفية غير صريحة. ويناقش دوكرو هذا المفهوم من زاويتين: حقيقته أو صدقيته؛ وتحققه. بالنسبة للنقطة الأولى يؤكد على ضرورة

(1) نفسه، ص 55.

(2) نفسه، ص 56.

(3) نفسه، ص 62.

(4) In Introduction à la pragmatique, p. 28.

الاعتقاد المشترك بين المتخاطبين في صدقية الاقتضاء ووجوده. فالمتكلم يعتقد في الخبر الذي يمرره، وفي الوقت ذاته يفترض اعتقاد مخاطبه في الشيء الذي يخبره به⁽¹⁾.

لا يختلف مفهوم الاقتضاء كثيرا عما قدمه غرايس في حديثه عن الدلالة غير الطبيعية، أو ما أشار إليه سيرل وأوستين في عمل متضمن القول. فكلها مفاهيم تنقلنا من المستوى اللساني الأول للدلالة إلى المستوى الثاني الذي يركز على مقومات في غالبها غير لغوية. وقد توقف دوكرو عند هذا التعالق بين الدالتين من خلال اعتبار أن الدلالة الحرفية ترتبط بالمكون اللساني والدلالة الضمنية ترتبط بالمكون البلاغي الذي ينقلنا إلى دلالة في إطار سياق معين⁽²⁾.

تعمل التداولية المعرفية انطلاقا من استفادتها من التطورات التي حققتها هذه العلوم على إعادة تأسيس تصور تداولي للغة أكثر تقدما يأخذ بعين الاعتبار الجانب الاستدلالي فيها، فقد أكد سيربر وويلسن على أن العمليات التداولية هي قطاعا ليست من خصائص اللغة، بل هي من خصائص النظام المركزي. فتأويل الأقوال بالنسبة إليهما يوافق نوعين مختلفين من العمليات: ترميزي لغوي/استدلالي تداولي. وقد كان هذا التصور حافزا لهما على تأسيس مجموعة من المفاهيم التي اعتبرها ضرورية في المقاربة التداولية. ويمكن الوقوف عند المفاهيم التالية:

أ - مفهوم السياق:

يؤكد سيربر وويلسن أن "السياق ليس أمرا معطى دفعة واحدة، إنما يتشكل قولاً إثر قول"⁽³⁾. فالمعلومة التي نحصل عليها تنتظم ضمن ثلاثة مداخل أساسية يكمل بعضها بعضا:

- مدخل منطقي: وهو المتعلق بالمعلومات والعلاقات المنطقية التي يقيمها المفهوم مع مفاهيم أخرى (تناقض، استلزام..).
- مدخل موسوعي: ويتعلق بمجمل المعلومات المتوفرة لدينا عن الأشياء التي توافق المفهوم.

O. Ducrot; Dire et ne pas dire, p. 7. (1)

Ibid., pp. 50-51. (2)

Ibid., pp. 113-114. (3)

- مدخل معجمي: وهو يرتبط بالمقابل أو المقابلات للمفهوم في لغة أو لغات طبيعية⁽¹⁾.

السياق بهذا المفهوم يتضمن كل ما هو خارج لساني، والذي يمكنه أن يشكل جزءا من الوضعية التلفظية. فهو يضم عناصر الإطار الزمكاني للتلفظ، وطبيعة المتحاورين وجنسهم، إلى جانب لحظة التلفظ. هذه المكونات الخارجية هي الكفيلة بأن تنقل المتخاطبين من التعامل مع المستوى اللغوي إلى التأويل التداولي.

ب - مفهوم المقصدية:

يتحدد هذا المفهوم من خلال الدلالة غير الطبيعية التي يشير إليها غرايس. فهي دلالة تقوم على مقصدية مزدوجة: مقصدية إخبارية، وهي ما يقصد إليه المتكلم من حمل مخاطبه على معرفة معلومة معينة. ومقصدية تواصلية: وتعلق بحمل المخاطب على معرفة مقصده الإخباري.

يقتضي المرور من المقصدية الأولى إلى المقصدية الثانية التحول من الدلالة اللسانية للجملة إلى الدلالة التداولية للقول، التي ترتبط بالدلالة غير الطبيعية. في هذا المستوى يقترح سبيربر وويلسن مفهوما تواصليا آخر هو التواصل الإشاري الاستدلالي⁽²⁾، ويعرفانه بقولهما: "يوجد تواصل إشاري استدلالي عندما يبلغ شخص ما شخصا آخر، بواسطة عمل معين، مقصده المتمثل في إبلاغه معلومة ما"⁽³⁾.

تتوحد هذه العناصر جميعا لتشكّل تصورا نظريا خاصا بالعالمين أطلاقا عليه نظرية الملاءمة Théorie de pertinence. والملاءمة عندهم هي "جهد ضروري لبناء السياق، واستنتاج يتوصل إليه بواسطة العملية الاستدلالية. وقد قدمت آن روبول تعريفا لملاءمة التواصل الإشاري الاستدلالي من خلال مقومين:

- كلما تطلب عمل التواصل الإشاري الاستدلالي جهدا أقل في تأويله ازدادت ملائمته.

(1) التداولية اليوم، ص 77.

(2) نفسه، ص 79.

(3) نفسه، ص 80.

- كلما كانت لعمل التواصل الإشاري الاستدلالي نتائج أكثر ازدادت ملاءمته⁽¹⁾. كما تعتبر مبدأ تأويليا يستعمله المخاطب بغير وعي أثناء عملية التأويل.

يهدف العمل الاستدلالي إلى تحقيق معرفة إضافية لدى المخاطب، والمتكلم وهو يبني خطابه يضع في نيته طبيعة هذه المعرفة التي يريد تمريرها لمخاطبه. ويمكن أن تحقق العملية الاستدلالية واحدة من النتائج الثلاث الآتية:

- إضافة معلومة تمثل استنتاجا للعملية الاستدلالية، ويطلقان على مثل هذه المعلومات: الاستلزامات السياقية.
- التغيير في قوة الاقتناع باعتقاد ما.
- إلغاء معلومة قديمة تناقضها معلومة جديدة أكثر إقناعا⁽²⁾.

نخلص إلى القول من خلال هذه الجولة عبر مجموعة من الاتجاهات من الدراسات التداولية أن هذا العلم اهتم بجوانب خاصة من الاستعمالات اللغوية، ويمكن القول بأنه انطلق من حيث وقفت اللسانيات البنيوية في مسارها الوصفي للغة. وعلى الرغم من هذا التعدد في الاتجاهات التداولية فإنها متداخلة مع بعضها البعض، فكل اتجاه جاء ليكمل السابق عليه ويسد النواقص التي اعترضت المنهج في بدايته؛ وهذا التداخل هو ما جعل بعض المشتغلين بالتداولية خلال العقود الأخيرة يعتبرون أن نظرية الملاءمة لدى سيربر وويلسن تمثل النموذج الأكثر تكاملا في المقاربة، فتبينوا النظرية وحاولوا تطبيقها على مجموعة من البنائات اللغوية خصوصا في الخطاب اليومي، ليرزوا مدى قابليتها الإجرائية في التحليل.

إن السؤال الذي طرح نفسه بإلحاح ونحن ننتقل عبر هذه الاتجاهات التداولية، وما قدمته من مقاربات تطبيقية هو: ما مدى قدرة التداولية على استيعاب الخطاب الأدبي أو التخيلي بصفة عامة؟ خصوصا وأن جل الأمثلة التي تأسست عليها مفاهيمها ترتبط باللغة العادية وما تتضمنه من انزياحات في التعبير، والطريقة التي يتلقى بها المخاطب هذه الأقوال ويتعرف على مقصديتها أو دلالاتها غير الطبيعية.

(1) نفسه، ص 85.

(2) نفسه، ص 85-86.

استحضرت التداولية التخيل في بعض الأحيان، ومن أجل تمييز خطاب التخيل كان التداوليون يقارنون بين التخيل والقول الكاذب، كما يقارنون بينه وبين القول الجاد. فمن خلال المقارنة الأولى ميزوا التخيل عن الكذب باعتبار أن المتكلم في الأول ليست له نية تضليل المخاطب في حين أن المتكلم في الخطاب الكاذب له نية تضليلية. وبالتالي فإن الكيانات التخيلية رغم عدم وجودها فهي توحد الاعتقاد بين المتحاورين في خطاب التخيل. وفي المقارنة الثانية يعتبرون أن القول الجاد يحتمل الصدق والكذب، لكن الخطاب التخيلي لا يمكن قياسه من هذه الزاوية، فهو شبيه بالاستعارة باعتبارهما خطابين غير حرفيين، ويمرران معرفة خاصة للمخاطب تتعلق بالكون أو المحيط الذي يستقبل فيه الخطاب. سنتوقف بتفصيل أكثر عند تصور التداولية للتخيل في الفصل اللاحق، فهو الفصل الذي خصصناه لمفهوم التخيل باعتباره موضوع هذه الدراسة من خلال مقارنة مجموعة من النصوص السردية العربية التراثية.

3-3- جسر العبور من السردية إلى التداولية:

كما سبقت الإشارة انطلقت السرديات كفرع من فروع الشعرية العامة من اللسانيات البنيوية، وكانت تهدف إلى وضع أسس لعلم أدبي جديد يهتم بالبنى النصية؛ وبالتالي فإن السرديات اقتصر في مقاربتها على الجانب الشكلي من العمل الأدبي "الخطاب". وعلى الرغم من المحاولات اللاحقة التي سعت إلى توسيع السرديات فإن الوصفية بقيت هي السمة الغالبة عليها. ولهذا يمكن القول بأن الشعرية بصفة عامة والسرديات خاصة كانت هي الوجه الثاني للسانيات البنيوية. فهذه الأخيرة اهتمت بوصف اللغة العامة في مستوياتها المختلفة: الصوتية، الصرفية، المعجمية، والتركيبية؛ وفي المستوى الدلالي واجهت مجموعة من الإكراهات والمعوقات التي تركت علم الدلالة غير قادر على تطوير أدواته؛ وهي الإكراهات التي ألحّت على ظهور التداولية كعلم يهتم بالدلالة في مستواها التواصلية بين المتحاورين، وتدعم مقاربتها بالمرور من الدلالة الترميزية الشفرية إلى الدلالة التداولية السياقية. وبنفس المقاربة تقريبا اشتغلت السرديات ووضعت إطاراً عاماً لمقاربتها من خلال تحديد مستويات العمل السردية: الموفولوجي،

التركيبي والدلالي، وأهملت المستوى الصوتي لأنه يرتبط بالشعر أكثر من ارتباطه بالسرد.

من خلال هذه المستويات الثلاثة كان الجانب التركيبي هو الحاضر بقوة في الدراسات السردية. فعلى الرغم من وضع المورفولوجي (القصة) إلى جانب التركيبي (السرد) في الدراسات المؤسسة التي تضمنها العدد الثامن من مجلة "تواصل"، فإن التركيبي كان هو الأكثر حضوراً خصوصاً بعد صدور كتاب جنيت "خطاب المحكي". وبالتالي فإن السرديات حددت موضوعها في الجانب الشكلي دون الدلالي.

إن الانفتاح النسبي الذي حققته السرديات مع ما عرف بالشعرية الجديدة التي وضع أسسها ميخائيل باختين أشرت بشكل قوي على إمكانية تطور المنهج السردى، وقدرته على استيعاب ما هو دلالي، غير أن المنظور الباختيني واجه إكراهين أساسيين:

أ. إكراه يرتبط بطموح باختين في الانفتاح على ما أسماه بالعبر - لسانية، وهو علم لم يكن قد وضعت له أسس بعد، وكما سبقت الإشارة فهذا العلم هو الذي سيعرف بالتداولية لاحقاً. ولهذا بقي انفتاح باختين محدود الجوانب وهو يتحدث عن التعدد اللغوي، وسياقاته الاجتماعية، وظاهرة الأسلبة وتعدد الأصوات. وهي كلها مكونات تحمل في جوهرها قواعد مقارنة دلالية متميزة.

ب. انزياح الرؤية الباختينية في اتجاه الخلفية الماركسية التي كان يتبناها آنذاك، وبالتالي عوض أن يتحدث عن تفاعل المكونات المؤسسة للدلالة السياقية، انبرى نحو وصف اللغات المتداخلة في النص الواحد وربطها برؤى إيديولوجية وطبقية، ومن ثم ربط التعدد على المستوى اللغوي والنصي بالتعدد والصراع الطبقي على المستوى الاجتماعي. فكانت المقاربة الدلالية ذاتها مقارنة وصفية شكلية تربط بين اللغة والمجتمع.

إن طموح الانفتاح السردى دائماً يتجه نحو المقاربة الدلالية. والسرديات بكل ما حققته خلال نصف قرن من الزمن تقريباً وهي تجرب الأدوات وتطور الرؤى وضعت بين يدي الباحث مجموعة من المعطيات الوصفية تمكنه من تفكيك النص وإعادة تركيبه بصورة تسمح له بقراءة ما وراء النظام التشفيري الترميزي، وهذه

القراءة الماورائية تحتاج إلى أدوات ومفاهيم تكون قادرة على استيعاب ما تحقق في التحليل الوصفي واستغلاله كفرضيات لقراءة جديدة تكشف عن الدلالة السياقية للنص ومقاصده. ويبدو لي أن نتائج التحليل السردى الوصفي كفيلة بأن تشكل جسورا متينة للعبور مما هو شفري ترميزي إلى ما هو تداولي استدلالى، وذلك باستغلال مجموعة من الأدوات والمفاهيم التي تعتبرها الدراسات التداولية أساسية في هذا المجال دون أن نحصر أنفسنا في الاتجاه المعرفي أو الفلسفي أو الاندماجي. فهي اتجاهات تداولية أعتبرها متكاملة مع بعضها، كل اتجاه منها يحيلك على الاتجاهات الأخرى. وسنجعل من المفاهيم التداولية المشار إليها سابقا - السياق، المقصدية، الدلالة الطبيعية والدلالة غير الطبيعية، الاستلزام الحوارى، الاستدلال - إضافة إلى التركيز على الوضع التواصلى بين المرسل والمتلقى والموجهات الخطائية، الأركان الأساسية التي سيقوم عليها التحليل للمرور من السردى إلى التداولى.

4- إضاءة ضرورية:

تفرض طبيعة المتن الذي نشغل به مجموعة من الاعتبارات الخاصة أثناء التحليل التداولى. فكما هو معلوم اهتمت التداولية في غالب الأحيان وهي تضع أسس منهجها بلغة الحياة اليومية العادية، وكانت تركز على وضعية التواصل الراهن الذي يربط بين المتحاورين، ومن خلاله عمل التداوليون على وضع مجموعة من الشروط لنجاح التواصل بين المتحاورين وتحقيق مقاصده. ومن ثم فإن المرور من الجانب الشفري إلى الجانب الإشارى كان يتأسس على طبيعة الاستعارات العرفية التي ترخر بها لغة الحياة اليومية. فوحدة الشفرة والسياق بمقوماته اللغوية والخارجية كانت تساعد على وضع فرضيات الاستدلال، وبلوغ الدلالة التداولية. وفي مقابل هذا التحليل الموسع لطبيعة لغة الحياة اليومية نلاحظ غيابا شبه تام للخطاب الأدبى أو التخيل بصفة عامة. فعلى الرغم من حضور مفهوم التخيل بين الحين والآخر لدى بعض التداوليين، وتحديد بعض خصوصياته التواصلية والإحبارية، فإن المقاربة التطبيقية لنصوص تخيلية تبقى غائبة في الغالب، اللهم بعض المقاطع الاستشهادية الجزئية التي كانت تستحضر بين الحين والآخر للبرهنة على فرضية معينة في التخيل كما هو الحال عند روبول مثلا.

يتميز المتن - موضوع الدراسة بخصوصيات تفرض علينا الحذر في التعامل معه، خصوصا ونحن نراهن على أدوات منهجية تشكلت ضمن رؤية خاصة، وأظهرت نجاعتها في مقارنة خطاب الحياة اليومية، فهل يمكن أن تحقق النجاح نفسه وهي تقارب نصوصا عالمة لها بنيتها الخاصة، وتبينت في سياق مغاير لسياق التلقي بمقصدية مضبوطة ضمنت للنص استمرارية تواصلية على مدى قرون من الزمن دون أن يفقد قوته التأثيرية في المتلقي (ين) المتعدد (ين).

هناك مجموعة من الإكراهات التي يجب أن نضعها نصب أعيننا ونحن نتعامل مع المتن الذي نشغل به بأدوات منهجية تتوخى تجاوز الترميزي إلى الاستدلالي، ويمكن أن نسطر هذه الإكراهات كالتالي:

أ. طبيعة المتن: الخاصة المشتركة بين النصوص التي سنشتغل بها هو تنصيبها على واقعيتها أو صدقية وقائعها. فأسامة بن منقذ في كتاب "الاعتبار"، يؤشر على أنه يدون حياته الخاصة من خلال رحلاته المتتالية إلى مصر والشام. ولم يكن التدوين بقصد الإخبار بحياته فقط، بل يحاول أن يمرر عبر مسار حياته معرفة خاصة للمتلقي، وهي معرفة مفتوحة قد تختلف من متلق إلى آخر ومن سياق ثقافي إلى سياق آخر. والسيرة النبوية في تجلياتها المختلفة، ابتداء من ابن إسحاق، ومرورا بابن هشام، والتعالقات النصية اللاحقة لهما، تؤشر على حياة شخصية تاريخية كانت لها خصوصياتها؛ والإخبار عنها له مقصدياته الخاصة التي تنكشف عبر القراءات المتعددة لهذه السيرة. صدقية الوقائع في هذا النص أيضا تفرض وحدة الاعتقاد بين المرسل والمتلقي حتى يحقق النص نجاحه التواصل في سياقات التلقي المختلفة. والشيء نفسه يقال عن خطاب الرحلة "الرحلة العياشية". فواقعية الأحداث، وتحقق الرحلة فعليا، يجعل جانبا مهما من النص ذا طبيعة توثيقية، غير أن هذا التوثيق تتخلله لحظات خاصة يطمح فيها المرسل إلى تمرير معرفة خاصة للمتلقي، ومسؤولية هذا الأخير هي الكشف عن هذه المعرفة. إنها معرفة مفتوحة تعاد بنيتها حسب سياقات التلقي المختلفة.

المتن إذن يوحى بصدقية وقائعه، لكن هذه الصدقية لا تنفي عنه طابع التخيلية التي اشتغلت بفاعلية خاصة وهي تعيد بناء أحداث الواقع. وهذا التفاعل بين الوقائع الحقيقية والاشتغال التخيلي هو ما يمنح لهذه النصوص جمالية خاصة

على مستوى البناء، كما يمنحها دلالة منفتحة قابلة للتحويل بتحول الأزمنة وسياقات التلقي. وهدفنا نحن في هذه الدراسة هو تحليل هذا التفاعل بين الوقائعي والتخييلي، وطرق اشتغالهما في بناء الدلالة التداولية للخطاب.

ب. ارتبط السياق في التداولية بالوضع التواصل العام الذي يربط المتلفظ بالمخاطب، وغالبا ما يكون سياقاً موحداً لراهنية التواصل في الخطاب اليومي كما تبرزه الشواهد المعتمدة في تحليلاتهم؛ وهو الشرط الذي لا يتحقق في تلقي النصوص التي نشتغل بها. فسياق التلقي يختلف اختلافاً تاماً عن سياق التلفظ أو التأليف، وبالتالي فإن إعادة البناء من خلال التلقي ستكون رهينة بالحيط السوسيو ثقافي الذي ستم فيه، مع الأخذ بعين الاعتبار السياق العام للإرسال (التأليف)، وهو السياق الذي سنحاول بناءه من خلال بعض الموجهات الخطابية التي تتضمنها النصوص.

وعندما نتحدث عن السيرة النبوية فإن السياق سيصبح متعددًا سواء على مستوى الإرسال أو التلقي. فالترهينات المختلفة والمتتالية للسيرة كانت تساهم في كل مرة في إبراز المتغيرات التي تنجلي بين نص وآخر إلى جانب الثوابت التي استمرت في كل التحليلات.

ج. المسافة الفاصلة بين سياق الإرسال وسياق التلقي تفرض علينا تأسيس سياق الإرسال (التأليف)، ومقصديات الرسالة انطلاقاً من الموجهات الداخلية التي يتضمنها الخطاب. وهي مجموعة من الموجهات اللفظية التي تطفو بين الحين والآخر لتعبر عن موقف من قضية أو الغاية من استحضار حدث دون آخر.

د. الانتقائية التي تميز مثل هذه التصنيفات تمثل في نظرنا موجهاً أساسياً لتخييلية هذه النصوص، ولهذا سنعتبرها إحدى المكونات السياقية العامة التي تساهم في بناء الدلالة التداولية في مثل هذه الخطابات.

الفصل الثاني

حول المفهوم: التخيل

obeikandi.com

حول المفهوم: التخيل

0- تأطير

التخيل *la fiction* مكون متجذر في التاريخ الإنساني، ونظرا لاتساع تداوله، فإن العديد من الدراسات أصبحت تتعامل معه باعتباره "معطى جاهزا" لا يحتاج لأي تعريف أو تحديد. والغريب في الأمر هو أن أي دارس تواجهه بالسؤال: ما التخيل؟ يجد نفسه عاجزا أو مرتبكا في إعطاء تعريف مضبوط ودقيق. وليس هذا العجز نابعا من الدارس ذاته، بل هو مرتبط بطبيعة المفهوم - التخيل - الذي اتسع اتساعا لا متناهيا، فافتحم مجالات متعددة، واتخذ ضمن كل واحد منها تعريفا خاصا حسب طبيعة المادة التي يهتم بها التخصص، ولا يسعنا إلا أن نقول عنه بأنه "تعريف جزئي" أو "نسبي". فكل تعريف يقدم المفهوم من زاوية واحدة فقط دون الأخذ بعين الاعتبار الزوايا الأخرى التي قد يحيل عليها اللفظ وهو ينتقل من حقل معرفي إلى آخر. وبالتالي فإن السؤال: ما التخيل؟ يبقى إشكالا معقدا يصعب الحسم فيه وضبطه وتوحيده بين التصورات المعرفية المختلفة.

لن نسعى هنا إلى تتبع معضلات هذا الإشكال، ولن يكون طموحنا هو وضع اليد على حل توفيقي - وقد يكون حلا تلفيقيا - لهذه الاتجاهات المختلفة. فطموح من هذا القبيل سرعان ما سيتفتت وهو يصطدم بواقع المفهوم. ولكن همنا هو محاولة وضع تصور أولي يكون منسجما وطبيعة النصوص الإبداعية التي نود الاشتغال بها حتى نحدد الأدوات اللازمة لمقاربة التخيل وطرق اشتغاله وسيرورات تطوره في مجموعة من النصوص العربية التراثية التي سنشير إليها في حينها.

يقتضي العمل من أجل وضع اليد على بعض ملامح المفهوم وخصائصاته في هذا الاتجاه أو ذاك الانطلاق من رؤية منهجية واضحة المعالم تتحرى المرور من موقع إلى آخر اعتمادا على أسس إستمولوجية متينة تضمن بالفعل التدرج من الأولي إلى الجوهرية ومن البسيط إلى المركب، لنتمكن في الأخير من تكوين تصور

عام يساعدنا على ضبط الجوانب التي نريد أن نجعل منها أركاناً أساسية لكل عمل تخيلي.

تبقى المفاهيم اللغوية والمعجمية من الأوليات البسيطة التي يمكن اعتمادها في تحديد بعض ملامح المفهوم، ولكن آثرنا عدم الوقوف عندها للأسباب التالية:

أ. المعاني المعجمية المتضمنة في المعاجم اللغوية هي محدودة جداً سواء في المعاجم العربية أو الأجنبية، بحيث لا تتجاوز مفهوم الخيال أو الطيف والشبيه، وفي الحد الأقصى تحسم في اعتباره المخالف للواقع. وهذه التعريفات البسيطة سنصادفها مباشرة في بعض المقاربات البلاغية والفلسفية، فلا داعي إذن لتكرارها.

ب. هناك دراسات متعددة - كتب ومقالات - أثارت هذا الجانب وتوقفت عنده بتفصيل كبير. وكل محاولة في هذا الاتجاه تبدو لي تكراراً لما قيل سابقاً.

ج. الاتساع الدلالي الذي عرفه المفهوم في سيرورته التاريخية في المجالات المعرفية المختلفة يلزمنا بمتابعة تطوراتها عبر هذه المجالات لتحديد ملامحه عوض ملاحظة الجوانب اللغوية للفظ فقط.

د. المعاجم المختصة في ذاتها لن تقدم لنا الشيء الكثير خصوصاً وأنها تختزل المفاهيم انطلاقاً من المجالات المعرفية التي استحضرت فيها. وهي المجالات التي سنحاول تتبع بعضها هنا.

لهذه الأسباب مجتمعة ارتأينا القفز على المعاجم اللغوية وحتى المتخصصة لتتابع سيرورة المفهوم عبر حقبة تاريخية مختلفة وضمن حقول معرفية استحضرت بყოّة وعملت على رسم ملامح خاصة له.

1- التخييل في الدراسات القديمة:

1-1 في الدراسات الفلسفية:

أثيرت قضية التخييل في الثقافات الإنسانية القديمة، ولعل الفكر الفلسفي اليوناني كان أول من أثار هذا الإشكال الإبداعي من خلال مفهوم "المحاكاة" الذي يعكس بصورة واضحة التجربة الإنسانية في علاقتها بالواقع. وقد جعل أرسطو من هذا المفهوم البنية الأساسية لمقاربة هذه التجربة وهي تعيد إنتاج الواقع بطرق مختلفة

تفاوت سموا وانحطاطا. ويحضر الجانب التخيلي للمحاكاة عند أرسطو وهو يقارن بين الشعر والتاريخ:

"وظاهر ما قيل أيضا أن عمل الشاعر ليس رواية ما وقع، بل ما يجوز وقوعه، وما هو ممكن على مقتضى الحال أو بالضرورة، فإن المؤرخ والشاعر لا يختلفان بأن ما يرويانه منظوم أو منشور... بل هما يختلفان بأن أحدهما يروي ما وقع، على حين أن الآخر يروي ما يجوز وقوعه"⁽¹⁾.

يضع أرسطو في هذا القول حدودا أولية بين الوقائعي والتخيلي فربط الأول بعمل المؤرخ الذي يهتم برواية ما وقع بالفعل، وربط الثاني بعمل الشاعر - ويبدو أن الشاعر هنا يحيل على ناظم الملاحم السردية - الذي يروي ما هو غير واقعي ولكن محتمل الوقوع.

بالانتقال إلى الفلسفة العربية الإسلامية يجد الدارس أمامه مجموعة من المواقف والآراء التي تلتقي أحيانا وتختلف أحيانا أخرى، وإن كانت جلها تستند على الفلسفة اليونانية خصوصا المواقف الأرسطية. والملاحظ أن ابن سينا أعطى للظاهرة حظها الوافر خصوصا في كتاب "النفس". وقبل الحديث عن ابن سينا سنتوقف عند بعد المعابر الأولية التي وردت لدى بعض المتقدمين من أعلام الفلسفة الإسلامية. يشير الكندي (ت 260هـ) إلى مفهوم قريب من التخيل وهو "التوهم"، ويعرفه على الشكل التالي:

"التوهم أو الفانتاسيا قوة نفسانية ومدركة للصور الحسية مع غيبة طينتها، ويقال الفانتاسيا هي التخيل، وهو حضور الأشياء المحسوسة مع غيبة طينتها"⁽²⁾.

يستحضر الكندي في هذا القول مفهومين أساسيين: التوهم والتخيل، ويجعل منهما المقابل للفظ اليوناني "phantasia"، وهو لفظ يشير إلى قوة ذهنية أو نفسية داخلية تمكن الفرد من إعادة استحضار الصور بعد غياب مرجعيتها المادية الواقعية. فالتخيل/التوهم هو إذن هذه الملكة الداخلية التي تقوم بإنتاج وإعادة إنتاج الصور، غير أن هذه الصور تبقى دائما مرتبطة بمرجعية واقعية، وهو ما يقابل المفاهيم

(1) أرسطو، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة بيروت - لبنان، ط3، 1973، ص 26.

(2) الكندي، رسائل الكندي، ج1، ص 167.

الذهنية أو الصور الذهنية للمدلولات. ومن ثم فإن التخيل عند الكندي يرتبط ببيكولوجيا الإدراك التي تهتم بطرق انطباع المحسوسات في الذهن أو في النفس؛ في حين يغيب عند الكندي إنتاج الصور اللامرعية المخالفة للواقع.

تزداد صورة التخيل اتساعا في الثقافة العربية الإسلامية ونحن نفتح على القرون اللاحقة لعصر الكندي لما عرفته هذه الثقافة من تطور ملحوظ بانفتاحها الواسع على الثقافات المجاورة وفي مقدمتها الثقافة اليونانية؛ وهو ما سيجعل المفاهيم الفلسفية على الخصوص تعرف نوعا من التركيب والتعدد في المعاني والمدلولات التي تشير إليها. الأمر الذي نلمسه في مفهوم التخيل أيضا. ففي تعريف لإخوان الصفا (القرن الرابع الهجري) للمتخيلة ووظائفها نصادف ما يلي:

"إن لهذه القوى (أي المتخيلة) خواص عجيبة، وأفعالا طريفة، فمنها تناول رسوم المحسوسات جميعا وتخليها بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها، ومنها أيضا أنها تتخيل ما له حقيقة وما لا حقيقة له، بعد أن عرف بسائطها بالحس، إذ له من القوة ما يقدر أن يوافي الصور التي أداها الحس إلى النفس في هيولاه كيف شاء، لأنه كان يجدها مجردة عن الهيولى التي هي ماسكة للصورة ومختفية بعضها دون بعض، فإذا أخذها لا إمساك لها ولا رابط أمكنه أن يؤلف بينها كما شاء، ويركبها ويصل بعضها ببعض، ما لم تكن متصلة بالهيولى، مثال ذلك أن الإنسان يمكنه أن يتخيل بهذه القوة جمالا على رأس نخلة، أو نخلة ثابتة على ظهر جمل، أو طائرا له أربع قوائم أو فرسا له جناحان أو حمارا له رأس إنسان، وما شاكل هذه مما يعمل المصورون والنقاشون من الصور المنسوبة إلى الجن والشياطين وعجائب البحر مما له حقيقة ومما لا حقيقة له"⁽¹⁾.

يثير موقف إخوان الصفا هذا قضية مهمة في التخيل، وهو يتحدث عن هذه القدرة الحافظة للصور المتخيلة. فإنتاج الصورة التخيلية يتم عبر مرحلتين: المرحلة الأولى هي مرحلة الاستقبال والإدراك، وتتعلق بالطريقة التي تستقبل بها هذه المتخيلة الصور المفردة من الواقع، ويتم حفظها مجردة عن الهيولى. ففوة المتخيلة تكمن في قدرتها على تجريد الصور المادية من مادتها، والهدف من ذلك هو إتاحة إمكانية إعادة إنتاجها في صورة جديدة قد تكون مخالفة تماما لصورها الأصلية.

(1) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا، ج3، ص 416.

والمرحلة الثانية تتمثل في إعادة إنتاج هذه الصور المخزنة في المتخيلة، وهي المرحلة التي تلعب فيها المتخيلة دوراً أساسياً بحيث تتمكن من إعادة تركيب هذه الصور المفردة في صور جديدة تبتعد كثيراً أو قليلاً عن مثيلاتها في الواقع. فإبداعية التخيل إذن بالنسبة لإخوان الصفا يتمثل في هذه المرحلة "إعادة الإنتاج"، فالصورة المركبة قد تجمع بين المتناقضات التي لا يستصغها منطق الواقع.

ما يمكن استنتاجه من هذا التصور أيضاً أن تركيب الصور الذي ركز عليه إخوان الصفا، يهدف إلى إعادة إنتاج معرفة جديدة قد تكون مجردة وغير ملموسة، فتجسدها المتخيلة في صور مادية لتبرز مخالفتها لمنطق الواقع، ويتمثل ذلك في "ما يعمل المصورون والنقاشون من الصور المنسوبة إلى الجن والشياطين وعجائب البحر، مما له حقيقة ومما لا حقيقة له". فالتخيلة إذن تلعب دور المتوهم، فبإمكانها أن تخلق صوراً ذهنية مجردة دون أن يكون لها مقابل في الواقع، ويتم ذلك عبر مستويات مختلفة.

بالانتقال إلى ابن سينا يجد الدارس نفسه أمام موقف جديد هو أكثر تقدماً ودقة. فابن سينا استطاع أن يتمثل الفلسفة اليونانية وبالضبط المواقف الأرسطية المتعلقة بالتخيل والمحاكاة، ثم نقل هذه المفاهيم ليلورها في أرضية ثقافية جديدة هي الثقافة العربية الإسلامية. فالحديث عن التخيل الشعري مثلاً لن يكون بنفس الصورة بين الشعر اليوناني والشعر العربي؛ ولهذا فالمفهوم سيأخذ شحنة جديدة من خصوصيات الشعر العربي الذي يعتمده ابن سينا في إعادة تأسيسه.

تميز موقف ابن سينا بمحاولة تجاوز المدركات البصرية كما هو الشأن مع إخوان الصفا، ليستحضر التخيل الذهني القائم على الصور السمعية والحركية (الفعلية)، مركزاً على الطريقة التي يتولد بها التخيل في النفس:

"وطرق وقوع التخيل في النفس إما أن تكون بأن يتصور في الذهن شيء عن طريق التفكير وخطرات البال، أو بأن تشاهد شيئاً فتذكر به شيئاً آخر، أو بأن يحاكي له الشيء بتصوير نحى أو خطي أو ما يجري مجرى ذلك أو أن يحاكي له صوته أو فعله أو هيئته بما يشبه ذلك من صوت أو فعل أو هيئة أو بأن يحاكي له معنى بقول يخيله لها، أو بأن يوضع لها علامة من الخط تدل على القول المخيل، أو بأن تفهم ذلك بالإشارة"⁽¹⁾.

(1) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 89-90.

التخيل عند ابن سينا إذن هو تمثّل ذهني وهذا التمثّل لا يأتي بطريقة واحدة، بل هو نتيجة لعلل مختلفة. والجديد فيه هو أنه يرتبط بالجانب الوجداني أكثر من ارتباطه بالجانب العقلي. فهذه الصور التخيلية تدفع إلى الانفعال إما انبساطا أو انقباضا. أما بخصوص وقوع التخيل في النفس فهو يأتي من الطرق الآتية:

أ. تصور عن طريق التفكير.

ب. التذكّر عن طريق الرؤية (المشاهدة) فالشيء المرئي يدفع إلى تخيل ما هو غائب.

ج. محاكاة الشيء المخيل بواسطة النحت أو التصوير.

د. محاكاة المخيل بواسطة الصوت أو الفعل أو الهيئة.

هـ - محاكاة معنى المخيل بالقول أو العلامة الخطية.

و. إفهام المخيل بالإشارة.

تبرز هذه المستويات التخيلية أن ابن سينا جمع طرقا متعددة تدخل جميعها في إطار التواصل بمفهومه الحديث؛ تبتدئ هذه العلاقة التواصلية بالعلامة الإشارية، ثم العلامة اللغوية (لفظية كانت أو خطية)، لتتسع وتشمل مستويات أعلى وأعم كالمحاكاة الصوتية أو الفعلية أو النحتية. وفي هذه المستويات كلها يكون التخيل هو المكون الرابط بينها، باعتباره يحول هذه العلامات الخارجية لفظية كانت أو غير لفظية إلى صور ذهنية تتمثلها المخيلة. ومن ثم فإن التخيل عند ابن سينا يرتبط بهذه العمليات الذهنية التي تحول الإشارات والعلامات إلى صور داخلية مدركة. وهذه العمليات الذهنية في غالبيتها هي إعادة إنتاج للصور تلعب فيها الجوانب الذاتية دورا أساسيا بحيث قد تنحرف هذه الصور الذهنية المتخيلة عن مقابلاتها العلاماتية الموجودة بالمرجع الخارجي، وبذلك فمفهوم الصدق ولا صدق في الإنتاج التخيلي يصبح غير ذي جدوى كما هو الحال في الشعر مثلا "أعذب الشعر أكذبه". فعلى الرغم من لا معيارية الصدق في الإنتاج التخيلي (الشعر مثلا) فإن الانفعال الوجداني يثبت قيمة هذه الصور التخيلية الإبداعية.

يخضر الجانب الوجداني النفسي بقوة في تصور ابن سينا للتخيل، ولهذا يقصي جانب التصديق فيه ليركز على الجانب الانفعالي الذي يحدثه في نفسية المتلقي، في مقابل الخطابة التي تعتمد التصديق، وتقوم على الحجة والبرهان:

"والمخيل هو الكلام الذي تدعن له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار؛ وبالجملية تنفعل له انفعالا نفسيا غير فكري سواء أكان المقول مصدقا به أو غير مصدق به، فإن كونه مصدقا به غير كونه مخيلا أو غير مخيل. فإنه قد يصدق بقول من الأقوال ولا ينفعل عنه، فإن قيل مرة أخرى وعن هيئة أخرى انفعلت النفس عنه طاعة للتخييل لا للتصديق، فكثيرا ما يؤثر الانفعال ولا يحدث تصديقا، وربما كان المتيقن كذبه مخيلا"⁽¹⁾.

وما تجدر الإشارة إليه ونحن نتابع تصورات ابن سينا للتخييل هو أن هذا المفهوم ارتبط بقوة. بمفهوم المحاكاة في الشعر، وقد كان لهذا الارتباط دور أساسي في موقف ابن سينا من التخييل الذي يأتي في الأمثال والقصص، حيث اعتبر أن "الشعر يفيد التخييل الذي يعتمد على محاكاة أمور موجودة بالضرورة، أو ممكنة الوجود، في حين أن الأمثال والقصص تفتقد هذا النوع من التخييل لاستنادها إلى أمور ليس لها وجود إطلاقا"⁽²⁾.

بناء على هذه التصورات الفلسفية الموزعة التي قدمناها في الفقرات السابقة يمكننا أن نخرج بملخص أولية تضع لنا إطارا عاما لمفهوم التخييل بالصورة التي تبلور بها في الفلسفة الإسلامية - وإن كنا قد أغفلنا بعضها (ابن رشد مثلا) لأنها تسير في نفس الاتجاه تقريبا - ويمكن أن نجمله في:

- ارتباط مفهوم التخييل بمفهوم المحاكاة في غالب الأحيان.
- اعتماد التخييل الشعري نموذجا للتخييل دون غيره من أنواع التخييل الأخرى.
- حصر التخييل في العلاقة الرابطة بين الصور الذهنية والمرجع الخارجي لها، والوسائل المعتمدة في إعادة إنتاجه (أصوات - إشارات - أفعال - ألفاظ - نحت...).

- الفصل بين التصديق المنطقي والتخييل المرتبط بالانفعال والوجدان، وبالتالي ارتباط التخييل بالجانب النفسي دون الجانب العقلي.
- تميز تصور إخوان الصفا بخاصية مهمة للتخييل في إعادة إنتاج الصور التخيلية المركبة التي قد تتجاوز الصور المفردة المرجعية إلى صور جديدة ليس لها مقابل

(1) ابن سينا، كتاب الشفاء، ضمن كتاب فن الشعر، ص 161.

(2) نفسه، ص 183.

في الواقع. وهذه الخاصية تعتبر في نظرنا أساسية لأنها ستساهم في بلورة الجوانب الإبداعية للتخييل الذي يكسر منطق الواقع.

1- 2- التخييل في الدراسات البلاغية:

مما لا شك فيه أن الدراسات البلاغية العربية استفادت كثيرا من الدرس الفلسفي، وحاولت تأسيس مفاهيمها البلاغية معتمدة على المفاهيم الفلسفية ولكن دون أن تتبناها كما هي. وهذا ما يعطي للدرس البلاغي العربي جوانب الخصوصية والتميز. ولن نتابع في هذا المقام كل التصورات البلاغية التي اهتمت بهذا المفهوم، لأننا لا نروم تقديم تاريخ له، بل نحاول أن نضع اليد على معطيات وخيوط تمكننا من إعادة تأسيس المفهوم بصورة يتلاءم مع طبيعة النصوص التي نشتغل بها في الثقافة العربية الإسلامية، ويسعفنا في تحديد أدوات منهجية لمقاربتها. ولهذا فإننا سنتوقف عند التصورات التي تبدو لنا أساسية في المجال البلاغي العربي من أجل تقديم صورة شبه عامة حول التخييل في البلاغة العربية.

ارتبط التخييل في البلاغة العربية بعلمين أساسيين لا يمكن الحديث عنه دون التوقف عندهما: عبد القاهر الجرجاني، وحازم القرطاجني. وسأضع إلى جانبهما قطبا ثالثا اعتبره متميزا في طرح القضية من وجهة نظر مغايرة، ويتعلق الأمر بابن وهب الكاتب.

القضية الأساسية التي تمهد لنا الدخول لمقاربة التخييل في البلاغة العربية هي المتعلقة بالحكم القيمي للحملة الخيرية "صدق/كذب". ومعلوم أن هذه الثنائية نصادفها في العديد من الكتب البلاغية والنقدية العربية. وقد اختلف في الطريقة التي يحدد بها هذا الكذب في الخبر؛ فمنهم من جعل الخبر الكاذب ما كان مخالفا للواقع، ومنهم من جعله مخالفا لاعتقاد المتكلم. وسواء كان هذا الموقف أو ذاك فإن القيمة الصدقية للكلام هي التي تمنحه مشروعية التداول؛ غير أن هذا اللاصدقي استطاع أن يجد لنفسه مكانا أو فضاء، ويستقطب له جمهورا خاصا اهتم به وتبع تطورات عبر خطابات نصية مختلفة تلتقي جميعها في هذه القيمة اللاصدقية التي هي "التخييل".

يطرح ابن وهب هذه الثنائية "صدق/كذب" في إطار حديثه عن خصائص الحديث؛ ويمكن أن نربطها بثنائية أخرى تدعمها وتبرز موقف ابن وهب الكاتب

من أنواع الحديث، وهي ثنائية "الجد/الهزل"، فجعل من الجد كل كلام أوجبه الرأي، وتدعو إليه الحاجة؛ أما الهزل فقسمه قسمين: ما ارتبط باستعمال الحكماء والعقلاء، وهو بالنسبة لهؤلاء يؤخذ مأخذ الجد، لأنه يستعمل للترويح عن النفس، واستعادة نشاطهم وحيويتهم؛ ومنه ما ارتبط بالسفهاء والجهال حيث يقصدون به الجحون والخلاعة واتباع الهوى، وهو مذموم مردود على أصحابه⁽¹⁾.

تكتسب هاتان الثنائيتان قيمة تخیلية عند ابن وهب الكاتب، ويكون من المحسف أن نحصر معناهما في القيمة الخلقية الاجتماعية التي تعبر عنها مباشرة. وتتأكد هذه القيمة التخیلية لهذه الخصائص عندما ينتقل ابن وهب للحديث عن بعض الأنواع الكلامية التي يتجاوز فيها التخیيل جانب المحاكاة بمعناها الشعري؛ فهو يشير إلى القصص والأمثال وعلى عكس ابن سينا أعطى ابن وهب لهذه القصص وظيفة اجتماعية وتربوية مستندا في ذلك على اعتمادها في القرآن الكريم لإعطاء العبرة والموعظة:

"وأما الأمثال والقصص فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمثال، ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشبهاء والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبا، وأقرب مذهبا، ولذلك قال الله عز وجل، ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل... وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخير في نفسه إذا كان ممكنا فهو يحتاج إلى ما يدل على صحته، والمثل مقرون بالحجة، ولذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دوتته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم، ونطقت ببعضه على ألسنة الطير والوحش، وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها..."⁽²⁾.

يضعنا ابن وهب الكاتب بهذا الموقف أمام صورة ثلاثية الأبعاد، فهناك القول الصادق، وهو الكلام الحقيقي المطابق للواقع والذي لا تخیيل فيه، وهناك الكذب الخالص الذي يعتبر لديه مردودا لأن فيه نوعا من التضليل، وهو غير مطابق للواقع، وبين هذا وذاك يوجد ذلك الكذب المحمود الذي لا يطابق الواقع وإنما يحيل عليه

(1) ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص 247.

(2) نفسه، ص 145-146.

بشكل من الأشكال، وهو الذي يمكن أن نصنف فيه التخيل باعتبار مقاصده المرتبطة بتحريك المشاعر والتأثير في النفس وانفعالها.

مع عبد القاهر الجرجاني نكون أمام عالم بلاغي متميز استطاع بالفعل أن يؤسس تصورا بلاغيا خاصا يعتمد على ضبط المفاهيم وتعليل سياقاتها. وقد يكون مفهوم "التخيل" من المفاهيم التي حظيت لديه بعناية خاصة. وقد خصص حيزا مهما للحديث عن التخيل في كتابه "أسرار البلاغة"، حيث وضعه ضمن مستويات الصورة البلاغية، وجعله في مرتبة ثالثة بعد التشبيه والاستعارة؛ أي أن الصورة التخيلية هي أكثر عمقا وإبداعا من التشبيه ومن الاستعارة.

يرد الحديث عن التخيل عند الجرجاني في فصل خاص عنوانه بـ "في الأخذ والسرقة وما في ذلك ** من التعليل وضروب الحقيقة والتخيل". وقد قسم الفصل قسمين: قسم عقلي، وقسم تخيلي؛ وما يهمنا نحن هو هذا القسم التخيلي، ويعرف هذا القسم بقوله:

"وأما القسم التخيلي فهو الذي لا يمكن أن يقال أنه صدق، وإن ما أثبتته ثابت، وما نفاه منفي، وهو مفتن المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلا تقريبا، ولا يحاط به تقسيما وتبويبا، ثم إنه يجيء طبقات، ويأتي على درجات، فمنه ما يجيء مصنوعا قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق، حتى أعطى شيئا من الحق، وغشي رونقا من الصدق، باحتجاج يخيل، وقياس يصنع فيه ويعمل"⁽¹⁾.

يضع الجرجاني التخيل مقابلا للحقيقة، وينفي عليه الجانب الصدقي، وهي الخاصية التي أثبتتها ابن سنا للتخيل سابقا وهو يضعه مقابلا للتصديق. غير أن الجرجاني يرى أن التخيل لا يأتي على صورة واحدة، بل هو على طبقات أو درجات. فما التقسيم الذي يعتمد عليه الجرجاني في التخيل؟

يؤكد الجرجاني خاصية أساسية للتخيل هو أنه "أظهر أمرا في البعد عن الحقيقة، تكشف وجهه في أنه خداع للعقل وضرب من التزويق" (ص 239). فمراتب التخيل إذن تحدد من خلال قرب أو بعده عن الحقيقة، فمنه القريب المأخذ الذي يسميه التخيل الشبيه بالحقيقة مما أصله تشبيه (ص 242)، ومنه التخيل مع حسن التعليل، ويأتي في مرتبة ثانية ويعرف هذا القسم من التخيل بقوله: "وهو أن

(1) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 231.

يكون لمعنى من المعاني والفعل من الأفعال علة مشهورة عن طريق العادات والطباع، ثم يجيء الشاعر فيمنع أن تكون لتلك المعروفة، ويضع له علة أخرى" (ص 257). فهذا التخيل لا يتأسس على العلة المشهورة في العرف والعادات، بل الشاعر يتجاوزها إلى البحث عن علة جديدة يرى أنها الأمثل والأقوم لجعل هذا التخيل قريبا من الحقيقة. ثم يتحدث أخيرا عن تخيل بغير تعليل (ص 262)، ويميز بينه وبين السابق بقوله "وهو يرجع إلى ما مضى من تناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه إلا أن ما مضى معلل" (ص 262). فهذا القسم يلتقي مع القسم السابق في البعد عن التشبيه وتناسيه غير أن القسم السابق معلل، وهذا القسم غير معلل، ويركز فيه على العلاقة بين الأوصاف المحسوسة والأوصاف المعقولة.

ينفي الجرجاني مبدأ التصديق على التخيل، ويجعله قائما على التوهم والخداع، ويخلص إلى القول بأن ما يريده بالتخيل هو "ما ثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويربها ما لا ترى" (239).

من خلال هذه الجولة السريعة في كتاب أسرار البلاغة يمكن أن نسجل الخلاصات الآتية:

- أ. التخيل عند الجرجاني يرتبط بالكذب المطلق والخداع.
- ب. يأتي التخيل على مراتب حسب قربه أو بعده من الحقيقة، وحسب ارتباطه بتعليل أو عدم ارتباطه به.
- ج. التخيل مكون بلاغي أقوى من التشبيه والاستعارة.
- د. ارتباط التخيل مثله في ذلك مثل سائر المكونات البلاغية الأخرى بالشعر.

يزداد الحديث عن التخيل اتساعا مع مقاربة حازم القرطاجني الذي يعتبر بحق واضعا لأسس نظرية للتخيل في الثقافة العربية الإسلامية. ويظهر من خلال كتاب "منهاج البلغاء" أن القرطاجني سار على النهج الذي خطه الفلاسفة المسلمون للتخيل الشعري وفي مقدمتهم ابن سنا، غير أنه عمل على توسيع الرؤية والتفصيل في التخيل باعتباره مكونا أساسيا للإبداع الشعري. وقد يطول بنا المقام إذا نحن حاولنا تتبع التفصيلات الكثيرة التي جاء بها القرطاجني في كتابه. والتخيل في أبسط صورته عند حازم هو "أن تتمثل للسامع مع لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو

أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخليها وتصورها أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة الانبساط أو الانقباض⁽¹⁾.

يرتبط التخيل عند حازم بجانب المتلقي، فهو المشكل لتلك الصور التي ينفعل لها وهو يسمع القول الشعري، وبالتالي فإن أثر التخيل هو أثر نفسي بالدرجة الأولى، يتعلق بالإيهام ومخادعة المتلقي؛ وهو يهدف إلى أن تحرك "قواه غير العاقلة وتثيرها بحيث تجعلها تسيطر أو تخدر قواه العاقلة وتغلبها على أمرها، ومن هنا يدعن المتلقي للشعر ويستجيب لمخيلاته"⁽²⁾. التخيل إذن لا يرتبط بالقوى العقلية، بل يخاطب القوى النفسية ويؤثر فيها، وتستطيع هذه القوى النفسية بتخيلائها أن تسيطر على القوى العقلية.

وإلى جانب لفظ "التخيل" وظف القرطاجني ألفاظا أخرى قدم من خلالها تجليات الإبداع الشعري بين المرسل والمتلقي ومنها: التخيل، المحاكاة، القوة المخيلة، والقوة المتخيلة. وقد جعل التخيل مفهوما مقابلا للتخيل باعتباره يرتبط بالمبدع وهو ينتج صوره الشعرية. فالتخيل عنده هو "القوة الإدراكية الفاعلة لعملية المزج بين الأشياء وإدراك العلاقات الظاهرة والكامنة فيها" (ص 70)، أي أنه يرتبط بالجانب الإبداعي، في حين يرتبط التخيل بالجانب التأثيري، وتحريك النفس لمقتضى الكلام، وحملها على الإقبال على الشيء أو النفور منه. وبهذا المعنى يكون التخيل مرادفا للفظ "المحاكاة"، وهو ما يؤكد جابر عصفور في كتابه "مفهوم الشعر"⁽³⁾.

يسهب القرطاجني الحديث عن التخيل في علاقته بالإبداع الشعري، حيث اعتبره المحدد لصناعة الشعر، وليس "كون الأقاويل صادقة أو كاذبة" (ص 71). ولهذا فإن معيار الصدق والكذب يغيب عن طبيعة التخيل، ليصبح المقوم الأساسي فيه هو قدرته في التأثير على المتلقي. فالتخيل "لا يقصد منه إلا التأثير النفسي للقول ذاته دون النظر في مطابقة ذلك القول لشيء خارج عنه، لذلك كان الصحيح في الشعر أن مقدماته تكون صادقة وتكون كاذبة، وليس يعد شعرا من حيث هو صدق أو هو كذب، بل من حيث هو كلام مخيل" (ص 63)، لأن النفس

(1) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 89.

(2) جابر عصفور، الصورة الفنية، ص 66.

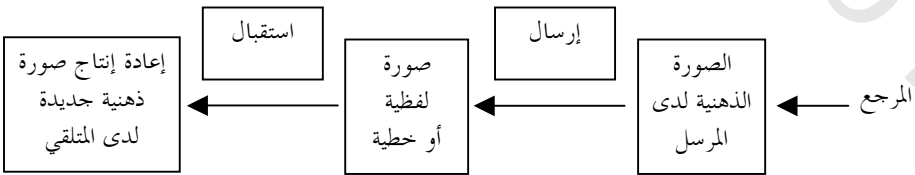
(3) جابر عصفور، مفهوم الشعر، ص 195.

اشتد ولوعها بالتخييل وانفعلت لصوره حتى "أنها ربما تركت التصديق للتخييل فأطاعت تخيلها وألغت تصديقها" (ص 39).

بصورة تتحرى الدقة والإتقان يقدم القرطاجني طرق تشكل صور المعاني بين المرسل والمتلقي، مؤسسا لفعل تواصلية تخيلي يبلور مراحل تشكل الصورة لدى المرسل وقنوات إرسالها ليعاد تشكيلها من طرف المتلقي:

"إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه؛ فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ، فإذا احتيج إلى وضع رسوم من الخط تدل على الألفاظ لمن لم يتهيأ له سمعها من المتلفظ بها، صارت رسوم الخط تقيم في الأفهام هيآت الألفاظ، فتقوم بها في الأذهان صور المعاني، فيكون لها أيضا وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليها" (ص 18-19).

يركز القرطاجني على الطريقة التي تتولد بها الصور التخيلية في علاقتها بالواقع، من خلال الربط بين الصور الذهنية والمرجع الخارجي، فكل معنى هو نتاج لهذه العلاقة، غير أن القرطاجني يعمق هذه العلاقة في نوع من التراتبية الدالة على صور المعاني، فيجعل اللفظ معبرا عنها من درجة أولى، والرسم الخطي معبرا من درجة ثانية، وهما الكفيلان بإعادة إنتاج الصورة لدى المتلقي في حلة جديدة ليست بالضرورة هي الموجودة لدى المرسل. إنه يقدم خطاطة تواصلية تضبط ميكانزمات التواصل بين المرسل والمتلقي، ويمكن اختزال هذه الخطاطة في الشكل الآتي:



نخلص من خلال هذه الجولة السريعة عبر مجموعة من التصورات العربية (الفلسفية والبلاغية) إلى أن حضور مفهوم التخييل ارتبط بخلفيات معرفية ومنهجية

استدعتها بالضرورة طبيعة المادة التخيلية المتعامل معها "الشعر". ولهذا فالتخيل اتخذ طابعا شعريا خالصا وإن أشارت بعض الدراسات إلى تخيل أو محاكاة غير شعرية (ابن وهب الكاتب)، غير أن هذه الإشارة الجزئية لم تكن كافية لتوسيع المفهوم في اتجاه نصوص تخيلية مغايرة للنص الشعري. ويمكن أن نحمل خصوصيات التخيل في الثقافة العربية في الملامح الآتية:

- التخيل خاصية تميز الإبداع الشعري.
- ارتباط التخيل بالتلقي.
- استهداف التخيل الجانب النفسي في المتلقي دون الجانب العقلي.
- تكسير التخيل جانب التصديق أو مطابقة الواقع في الصور التخيلية.
- اعتماد التخيل التركيب في الصور التي تلتقط من الواقع مفردة، ولا يشترط في تركيبها احترام منطق الواقع.
- القصد من التخيل الإقناع، ليس بالحجج المنطقية، ولكن بالاستمالة النفسية للمتلقي.

هذه الخصائص وإن ارتبطت بالإبداع الشعري وحده فإنها قابلة لاستيعاب النصوص التخيلية الأخرى التي عرفتها الثقافة العربية الإسلامية، لما تميزت به هذه النصوص التخيلية الثرية من تكسير لمنطق الواقع، واعتماد صور تخيلية مركبة تزاوج بين ما له مرجع في الواقع وما لا مرجع له، في نوع من الانسجام والتناغم.

2- التخيل في الدراسات الحديثة:

لقد استطاعت العلوم الإنسانية الحديثة أن تحقق قفزة نوعية في مجال المناهج والأدوات الإجرائية لمقاربة القضايا العامة التي تهتم بها؛ وفي ظل هذا التطور أولت اهتماما كبيرا للجانب الاصطلاحي، وهو ما ساعد على اتساع المفاهيم وتعدد دلالاتها. فكل مجال معرفي يحدد حقل اشتغاله ومن خلال حدود هذا الحقل يطوع المفاهيم ويضبط معانيها. وقد حتم هذا الاتساع على كل دارس في أي مجال من المجالات أن يعيد تأسيس مفاهيمه وفق التصور الذي يراه مناسباً لقضاياها وأهدافه.

مفهوم التخيل الذي هو موضوع دراستنا هنا هو الآخر استفاد من هذا التعدد في الحقول المعرفية التي اهتمت به، وأصبح من العسير جدا منح الأولوية لهذا

التعريف أو ذاك دون وضع المبررات المصوغة للاختيار. فمن الفلسفة والمنطق إلى النقد الأدبي مروراً بالأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع، ونظرية المعرفة والتداولية وغيرها، يجد الدارس نفسه أمام ركام معرفي يصعب حصره أو تحديد تعالقاته المعقدة دون أن يكون له الحق في إلغاء هذه التعالقات. وبالتالي فإن الدقة والضبط تتطلبان منه التأني في التعامل مع هذه الحقول المعرفية، وتأملها من أجل الظفر ببعض الخيوط الرابطة التي تمكنه من العبور من هذا الحقل إلى ذاك دون أن يفقد انسجام منهجه وتناسق مقاربتة.

لا أود أن أفصل كثيراً في الوقوف عند هذه الحقول المعرفية المختلفة، وسأحتزل مجهودي في هذا المبحث في تقديم هذه التعريفات المختلفة للتخييل التي نصادفها في الدراسات الحديثة، معتمدين على بعض الدراسات التي اهتمت بالتخييل في ذاته مستهدفة وضع تصور شبه منسجم لهذا المفهوم وتحديد طبيعته وخصوصياته ومقاصده في علاقته بالواقع من جهة وبالإبداع الفني بصفة عامة من جهة ثانية.

من أجل أرضية أولية أكثر انفتاحاً في تعريف التخييل نتوقف عند مقال لوران جيني Laurent Jenny بعنوان "la fiction"⁽¹⁾، يستهله بالإشارة إلى تعدد معاني التخييل، ويمكن أن نختزل هذا التعدد في التعريفات الآتية:

أ. التخييل كتنقيض للحقيقة: ويمكن أن نعتبر التخييل في هذه الحالة نوعاً من الكذب المقصود أو الهادف. وغالباً ما يستعمل هذا المفهوم في لغة الحياة اليومية. ففي الوقت الذي يواجه شخص ما محاوره بقوله "قولك هذا تخييل"، فهو يعني بذلك أن هذا الكلام غير حقيقي ومخالف للواقع.

ب. التخييل باعتباره بناء تصورياً: وهو المعنى الذي يقرّبنا من المفهوم الفلسفي للتخييل بالصورة التي يحددها كانت "Kant" وهو يتحدث عن الزمن والفضاء كتخييلات استكشافية. إن هذه التخييلات التصورية ليست مخالفة للحقيقة كما هو الشأن في المعنى الأول، بل هي تصورات ذهنية مساعدة على تأويل الواقع. وقد أصبح هذا المعنى هو السائد حتى في الدراسات الأدبية التي تتعامل مع المحكيّات بما في ذلك التاريخية كتكوينات بنائية للمعنى.

Laurent Jenny, la fiction, www.unige.ch. (1)

ج. التخيل باعتباره عالماً دلالياً: ويتعلق هذا المعنى بعوالم التخيل المدمجة في الأعمال الأدبية، والتي تصف هذه العوالم وتحدد علاقتها بالواقع؛ وتستلهم هذه العوالم دلالتها من نظرية العوالم الممكنة.

د. التخيل باعتباره جنساً أدبياً: اعتادت الدراسات في المجالات الأنكلوفونية والفرانكوفونية على استعمال لفظ "التخيل" للدلالة على نوع أدبي يقابل "اللاتخيل"، أي مجموع الأنواع الجادة (مثل السيرة الذاتية والشهادات...). وقد تساءلت مجموعة من الدراسات حول مدى تميز التخيل بخصائص تلفظية ونصية خاصة أو أن المؤشرات الخارجية والموازيات النصية فقط هي الميزة له. هـ - التخيل كحالة ذهنية: وفي هذا الإطار يزداد المفهوم اتساعاً ليشمل تلك الحالات التي تتقمص فيها الشخصيات أدواراً خاصة سواء على خشبة المسرح أو في السينما؛ إضافة إلى الحالات الذهنية التي تتولد عن قراءة عمل تخيلي ما، وكذا ألعاب الأطفال وهي تزج بلعبها للاندماج في هذه الأدوار الإلكترونية بكل فاعلية وانفعال.

هذه المعاني التي قدمها لوران جيبي وإن بدت في إطارها العام مختلفة فإنها لا تنفي التداخل وإمكانية الجمع بين بعضها خصوصاً تلك التي ركزت على الجانب الأدبي منه. فالتخيل يكتسب دلالاته من خلال مساهمته في بناء العوالم السردية للمحكيات، وتبقى العوالم الممكنة صورة من صور التخيل التي يتضمنها الخطاب الأدبي.

وإيماناً منا بهذا التداخل بين هذه المعاني المختلفة، سنركز هنا على جانب يبدو لي أكثر أهمية في إغناء المفهوم وتحديد إطاره، ويتعلق الأمر بما أسماه جيبي بـ "حدود التخيل"؛ وهذه الحدود ترتبط أساساً بالدلالة من جهة وبأبعاد عوالم التخيل وبنائها من جهة ثانية.

2- 1- حدود التخيل:

يرى لوران جيبي أنه يصعب وضع حدود دقيقة للتخيل، لأن الحالة التخيلية لعالم أدبي ما ليست مجزأة بالقوة، وليست مستقرة تاريخياً؛ فأغلب الأعمال الدرامية والملحمية القديمة، لا تؤخذ على أنها كلها تخيل، وحتى الشخصيات المدمجة

في هذه الأعمال من آلهة وأبطال تكتسب شرعيتها من خلال الواقع الطبيعي أو الأسطوري الذي ينتجها، وبالتالي فتلقاها يختلف من عصر إلى آخر، وشرعيتها الواقعية يتحكم فيها الإطار الطبيعي والأسطوري والعقدي الذي يحكم هذه الفترة التاريخية. ولا يمكن الجزم بأن ما تضمنته الملاحم القديمة هو أقل واقعية من الشخصيات التي تحفل بها الرواية الحديثة مثلاً (مدام بوفاري، جان فال جان، كوزيط...).

تثبت هذه المعطيات أن التخيلية ليست حالة مستقرة ولا مفهوما ثابتا، بل هي مفهوم متغير تاريخيا تحكمه المعطيات والخلفيات الفكرية التي تضع حدودا للمفهوم "التخيلية".

يفصل جيني الحديث في خصائص التخيل وأبعاده انطلاقا من مجموعة من الأعمال النقدية الغربية، ويعمل على تحديد أبعاده وطبيعته الأدبية بناء على مقومات أسلوبية، وهي عناصر سنعود للحديث عنها بتفصيل لاحقاً، لأن هدفنا في هذا المدخل هو تحديد المفهوم أولاً من خلال هذه التصورات المختلفة التي قاربت.

ينطلق جان ماري شيفر J.M. Schaeffer في مقاله المعنون بـ "de l'imagination à la fiction"⁽¹⁾ من التعريف المعجمي للقاموس "Robert" الذي يعرف التخيل بأنه "هو الذي لا يوجد إلا في الخيال، والذي لا يحيل على واقع بعينه"، فاللفظ يحيل على تمثيلات لا ترتبط بأي واقع غير ذهني، وهو يجسد هذه السيورة الذهنية التي تخلق مجموعة من التمثيلات المجردة عن كل قوة مرجعية. إنه إذن على المستوى المنطقي يحيل على مدلول باطل.

يترك شيفر في البداية التخيل الأدبي جانبا ليحدد طبيعة التخيل ووظائفه في حقول معرفية ترتبط بالعلوم الدقيقة، ويشير إلى الرياضيات التي تلجأ إلى فرضيات تخيلية من أجل حل بعض المعادلات من الدرجة الثانية أو المعادلات من الدرجة الثالثة التي استعصى حلها. فإذا كانت خاصية دلتا Δ قد وجدت حلولاً للعديد من معادلات الدرجة الثانية فإنها لم تستوعب حلول معادلات الدرجة الثالثة، وبالتالي التجأت الرياضيات إلى افتراض الأعداد العقدية التي تندرج ضمن المجموعة C وهي أعداد لا وجود لها لأنها تمثل المربعات السالبة، فكانت الخاصية على الشكل الآتي:

J.M. Schaeffer, de l'imagination à la fiction. www.vox-poetica.org. (1)

$a + bi$ ، على اعتبار أن a و b عددان حقيقيان وأن i هو عدد عقدي مربعه سالب ($i^2 = -1$). وقد استحدثت هذه الأعداد العقدية من أجل إيجاد حلول للمعادلات من الدرجة الثالثة التي تدرج ضمن الأعداد الحقيقية، والتمكن من وضع مواقعها على المعلم؛ ولهذا فالأعداد العقدية التخيلية لا تأتي لتجرد الأعداد الحقيقية من طبيعتها، ولكن لتحفظ الوضع الإبستيمي للسيرورة المعرفية التي أدجت فيها.

وبناء على هذا التصور اعتبر شيفر أن التمثيل الذي لا يطابق أي موضوع حقيقي يمكن أن يكون عنصرا ضروريا في العمليات الذهنية التي تقوم على موضوعات حقيقية، دون أن تشوش هذه العملية التخيلية بشكل أو بآخر أنطولوجيا على السيرورة التمثيلية التي تدخل فيها، وبالتالي يمكن أن نسلم بأن التخيل ليس فقط جسرا من أجل بلوغ الواقع، وإنما هو شرط ضروري من أجل هذا البلوغ.

بالرجوع إلى التخيل الأدبي يرى شيفر أن القضية الأساسية التي يمكن طرحها في هذا المجال هي العلاقة التي تربط التخيل بالمحاكاة: هل التخيل الأدبي يحاكي الحياة؟⁽¹⁾. وعلى الرغم من أن أغلب الأجوبة عن هذا السؤال تنحو نحو الإيجاب، فإن شيفر يتحفظ عن ذلك معتبرا أن النص لا يمكنه أن يحاكي إلا نصوصا أخرى؛ كما يعتبر المحاكاة والتنميط مظهرين يحددان كل تخيل بما في ذلك التخيل الأدبي. ولهذا يمكن أن نقول "إن التخيل الأدبي يحاكي الحياة إذا كنا نعني بذلك أن هذا التخيل يحضر تنميطات ووضعيات وأفعالا، والقارئ وهو يقرأ هذا التخيل يتخيل الوضعيات الموصوفة، والأفعال المسرودة، لأن غاية التخيل اللفظي... والمعيار الحقيقي لنجاحه أو فشله يكمنان في مدى خلق نموذج لعالم ما" (ص 261).

أطروحة شيفر هنا تحاول أن توظف التخيل كأطيرا أنثروبولوجيا، وتهدف إلى معرفة الميكانيزمات المتحركة في إنتاجه، وهو الشيء الذي أفصح عنه منذ البداية عندما قال: "عملي هذا يتموقع في مستوى أولي: فالأمر يتعلق بمحاولة فهم الأسس الأنثروبولوجية للتخيل" (12)، الذي لا يمكن أن يفهم إلا "إذا انطلقنا من الميكانيزمات الأساسية لـ "فعل كما لو" «comme si» المتعلق بالتصنع اللعبي،

(1) J..M. Schaeffer, Pourquoi la fiction, p. 259.

ومن التظاهر التخيلي الذي يلاحظ تكونه في لعب الأدوار، وفي أحلام يقظة الأطفال" (11). وهكذا يرى شيفر أن مفهوم التخيل يرتبط بمفاهيم متعددة، تلتقي في أشياء وتختلف في أخرى أوجزها في التالي:

- مفهوم المحاكاة.

- مفهوم التصنع.

- مفهوم التظاهر.

- مفهوم الظل أو الشبح.

- مفهوم التكثيف.

- مفهوم التجميع.

وكلها مفاهيم تحتاج في إنجازها إلى إعادة إنتاج ذهنية لخلق فعل جديد قريب أو بعيد من الواقع.

2-2- التداولية ومفهوم التخيل:

تأتي التداولية في مرحلة عرفت فيها العلوم الإنسانية تطورا ملحوظا مع ما حققته الدراسات البنيوية من إنجازات في هذه المجالات. وقد استغلت هذه النتائج البنيوية وجعلت منها الفرضيات الأساسية التي انطلقت منها نحو توسيع آفاق البحث والتحليل في مجال التواصل.

وإذا كانت التداولية في مجمل تصوراتها واتجاهاتها قد اهتمت بخطاب الحياة اليومية، والموجهات التي تتحكم في عملية التواصل بين المرسل والمتلقي، فإنها لم تغفل جانب التخيل باعتباره تحليلا من تجليات التواصل الإنساني، وحاول التداوليون أن يجدوا لخطاب التخيل أرضية تداولية لمقارنته، وتعرف حقائقه وأهدافه، والنتائج التي يحققها على مستوى التطور المعرفي لفعل التواصل.

توقفنا في فصل سابق عند التداولية كنصير منهجي حاول أن يطور أدوات التحليل في مقاربة الخطاب اللغوي، خصوصا القضايا التي أقيمت أو أهملت في مجال الدراسات اللسانية، وتجنبنا للتكرار سنتوقف هنا فقط عند مفهوم التخيل كما حددته الدراسات التداولية، والأسئلة التي ارتبطت به، وكيف حصرت مجال الاشتغال به في مجموعة من القضايا التي تعتبر ذات طبيعة تداولية خالصة.

خصصت آن روبول في مؤلفاتها المختلفة - كتب ومقالات - حيزا مهما للمقاربة التخيلية، واستطاعت بالفعل أن تجمع شتات تصورات تداولية مختلفة "سورل - كوين - غودمان - سبربر وويلسون"، لتقدم من خلالها تصورا مركبا يعالج قضية التخيل تداوليا في صورة عامة، تبرز عبرها أهم الإشكالات والقضايا التي يجب معالجتها وإيجاد حلول تداولية لها.

تعتبر روبول أن المقاربة التداولية للتخيل هي رهينة بالإجابة عن مجموعة من الأسئلة المتعلقة بطبيعة التخيل، ويمكن إجمالها في ما يلي:

- كيف نعالج المشكل الأنطولوجي للتخيل؟
- الكيانات التي يحيل عليها التخيل هل توجد بالفعل؟
- هل تحتفظ العناصر الموجودة فعليا بخصائصها المرجعية نفسها؟
- هل يتغير التخيل من عالم إلى آخر؟
- إذا كانت أحداث التخيل غير موجودة، فكيف يمكن أن نحدد اتجاهها وجهة نظر معينة؟

- ما العلاقة بين الدلالة التي ينتجها الخطاب العادي اليومي والدلالة التي ينتجها خطاب التخيل؟

عملت روبول على وضع تصور خاص للتخيل يلائم المقاربة المنهجية التي ستعتمدها في تحديد خصوصياته. ولهذا الغاية وضعت مجموعة من التصورات المتجاورة من أجل أن تخضعها للفحص والتدقيق وتختار من بينها الصورة الأقرب للمقاربة التداولية. وعناصر الصورة هي متفرقة بين إنجازاتها المختلفة، وسنعمل على تجميعها من خلال استحضار مقاطع نصية من هنا وهناك. فالتخيل "هو تمثيل يصف كيانات غير موجودة"⁽¹⁾، وهو "يساهم رغم كذب معظم الأقوال التي تكون خطابه في بناء تمثل للكون أو تجويده"⁽²⁾، والأعمال التخيلية ترسل رسالة أو مجموعة من الرسائل تقرر عبر النص ولكنها لا توجد فيه"⁽³⁾، والمتكلم في الخطاب التخيلي يدعي الإخبار دون أن يسعى إلى حمل مخاطبه على الاعتقاد بأنه إزاء إخبار

Ibid., p. 12. (1)

Ibid., p. 17. (2)

Anne Reboul, Réalités de la fiction, livre électronique, p. 97. (3)

خالص"⁽¹⁾. وهكذا يمكن اعتبار التخيل خطابا منفتحاً قابلاً لاستيعاب عوالم مختلفة وغير متجانسة، وتظهر قوته في قدرته على منح هذا الكل اللامتجانس انسجاماً نوعياً يساعد على مقروئته وتلقيه. فهو خطاب "يتدخل فيه الصادق والكاذب على مستوى الفضاءات والشخصيات والأزمنة والأحداث، لكنها تتألف جميعها لتكون عوالم غير صادقة ولكنها تلميحية"⁽²⁾.

فرضت هذه الصورة المركبة للتخيل على روبول مناقشة القضايا الأساسية المشار إليها أعلاه من أجل وضع التخيل في إطاره الطبيعي، وتحديد القوى التي تكسبه مشروعيته التواصلية على مر الأزمنة والأجيال. واعتبرت أهم عائق بالنسبة للتخيل هو المشكل الأنطولوجي. وقد أبرزت في هذا الجانب أن لا جدوى أنطولوجية التخيل تظهر واضحة في التصور السردى الذي وضعه جنيت وهو يتحدث عن ثلاثية: المحكي - القصة - السرد، إذ يصعب وضع حدود دقيقة نعبر من خلالها من الحدث كقصة إلى الحدث كفعل سردي. وعملت على معالجة هذا الاضطراب التنظيري من خلال بعض المواقف الفلسفية التي تأسست عليها الدراسات التداولية مثل تصورات سورل وغودمان، حيث يميز الأول بين الخطاب التصوري figuratif والخطاب التخيلي fictif فالأول هو خطاب غير حرفي، بينما الثاني هو خطاب غير جاد. ويميز بين الخطاب الجاد والخطاب التخيلي "غير الجاد" من خلال قوانين الخطاب، فالخطاب الجاد يستدعي بالضرورة مبدأ الصدق والحقيقة، ولا مكان لهذين المبدئين في خطاب التخيل⁽³⁾، ويفترض سورل أن مؤلف التخيل يخلق "il feint" دون أن تكون له قصدية تضليل المستمع أو القارئ. أما غودمان فيميز بين التمثيل والتعبير، فيعتبر الدلالة التمثيلية هي ما يقدمه العمل مباشرة، والدلالة التعبيرية هي ما يوحي به العمل من معرفة⁽⁴⁾. وفي مجال التخيل تكون الدلالة التمثيلية غير ذات جدوى أو غير موجودة مطلقاً "représentation avec dénotation nulle"⁽⁵⁾.

(1) أن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة لطيف زيتوني، منشورات المنظمة العربية للنشر، ص 198.

(2) Réalités de la fiction, p. 56.

(3) التداولية اليوم، ص 37-38.

(4) Anne Reboul; rhétorique et stylistique de la fiction, p. 31.

(5) Ibid., p. 31.

وعلى الرغم من هذه الحلول الفلسفية، ترى روبول أن المشكل مازال قائماً، ومن الضروري البحث عن حلول له. وقد أسست تصورهما للتخييل ومقاربتيه على نظرية الملاءمة كما وضعها وطورها سيربر وويلسون. واعتبرت أن مفهوم الملاءمة قادر على استيعاب كل الإشكالات التي ترتبط بالتخييل، خصوصاً تلك التي تتعلق بالوضع المعرفي للأشياء التي يتحدث عنها التخييل⁽¹⁾. وكان السؤال الموجه لها في إعادة بناء المقاربة هو: كيف يمكن للمفوض ما أن يكون ملائماً دون أن يكون صادقاً؟

لحل هذا الإشكال تضع روبول تصورات غودمان إلى جانب تصورات سيربر وويلسون، لتؤكد التكامل بين معالجة غودمان للتعبير والتحليل الاستعاري الذي يقوم به سيربر وويلسون⁽²⁾، وبالتالي فإن ملفوظات التخييل بالنسبة لها شبيهة بالاستعارة، والتمثيل فيها لا يقوم على التشابه بين القصة التي تحكى والعالم الواقعي، ولكنه يقوم على تأويل الاستلزامات السياقية للقصة والفكرة التي يقصد المؤلف تمييزها للمتلقى⁽³⁾. وقصدية المتكلم في التخييل كما في الاستعارة هي إرسال مجموعة من الاستلزامات المتعلقة بالمفوض، ومبدأ الملاءمة يستعمل من أجل تحديد الاستلزامات التي يرغب المتكلم في إرسالها من بين كل الاستلزامات السياقية للمفوض.

تهتم التداولية بالجانب الاستدلالي في التخييل، باعتباره المبدأ الذي يميز الخطاب الجاد الصادق عن الخطاب التخيلي، وتؤكد على لا كينونة الكيانات التخيلية، وأن وجودها يرتبط فقط بتمثيلاتها التي تتجلى عبر الملفوظات. وهذه الخصائص لا تفقد خطاب التخييل خاصيته المعرفية التواصلية، وهي خاصية تتمظهر عبر المقومات السياقية والاستلزامات الخطابية التي يعيد المتلقي تأسيسها من أجل بلوغ الدلالة التي يقصد إليها المرسل أو المتكلم. وبالتالي فإن قوة التخييل تتمثل في ذاك البعد المعرفي الضمني الذي يتضمنه ولا يمكن إدراكه مباشرة.

ولا تتحدد العلاقة بين الواقع والتخييل فقط في البعد المعرفي الذي يمرره خطاب التخييل، بل العلاقة بينهما تبقى وطيدة وعلى مستويات مختلفة ومتداخلة.

Ibid., pp. 37-38. (1)

Ibid., p. 38. (2)

Ibid., p. 45. (3)

فالتخييل يستلهم عوالمه من الواقع، ويقصد إلى **إعادة بنائه في صورة يعتقد المرسل أنها النموذج الذي يجب أن يكون عليه. ومن ثم فإن عوالم التخييل تتداخل فيها الكيانات التخيلية والكيانات الواقعية. وإذا كانت الأولى تكتسب مشروعيتها من خلال ما تحمل من دلالة إيحائية ضمنية حول الواقع، وما تعبر عنه من حقائق، يعتقد المرسل في صدقيتها، ويعمل على إقناع المتلقي بجدواها وفعاليتها، فإن الكيانات الواقعية التي تتسرب إلى عوالم التخييل تكون من جهة داعمة لهذه الدلالة الضمنية التي يقصدها المرسل، وتفقد في غالب الأحيان من أجل القيام بهذه الوظيفة، العديد من ملامحها الواقعية الحقيقية، لتكتسب ملامح جديدة تتلاءم وعوالم التخييل التي تتحرك فيها.

التخييل إذن هو محيط معرفي ممتد الأطراف تتحرك فيه الذاكرة الإنسانية لتبدع من خلاله ما تعتقد أنه يلامس الحقيقة من بعض جوانبها، وترى فيه نموذجاً لما تطمح إليه وترغب في تحقيقه، فهل يمكن أن يكون تعويضاً عن الواقع المحدود الذي يتحرك فيه الإنسان مادياً؟

قد يكون كذلك، خصوصاً إذا علمنا أن عوالم التخييل هي الكفيلة بأن تخلق الانسجام بين العناصر المتنافرة، وأن تؤلف في صورة تركيبية عجبية بين أشياء أو عناصر متباعدة على مستوى الزمان والمكان دون أن يشعر المتلقي بأن هناك شرحاً أو تنافراً بين هذه العناصر المتداخلة. إن خاصية الانسجام الجوهرية هذه هي التي ضمنت للتخييل الاستمرار عبر عصور متلاحقة دون أن نحس في أية لحظة من اللحظات بأن مكوناته استهلكت ذاتها، وبلغت النفق المسدود. فالتخييل متعدد في صيغة مفرد، متعدد لأنه تضمن ما لانهاية من النصوص التخيلية وفي مجالات متعددة دون أن نشعر بأن الواحد يكرر الآخر وإن كانت النصوص تتعالق ببعضها البعض، والتعالق ميزة الإبداع الإنساني في سيرورته التاريخية، ومفرد لأنها كلها تدخل تحت مسمى واحد ويستوعبها جميعها دون أن نشعر بخلل في التسمية.

امتد التخييل من مستوى أولي بسيط يتجسد في ما يدعى "الشبيه بالواقع"، الذي يستمد عوالمه من الواقع الفعلي مباشرة، ولا يجد المتلقي صعوبة في ربط المكونات التخيلية بمرجعياتها الواقعية، إلى مستوى مركب يتجاوز فيه الدلالة المباشرة للخطاب إلى دلالة ضمنية تحتاج من المتلقي تأسيس سياق خاص لتلقيها واستيعابها؛

وقد يكون التركيب أكثر تعقيدا عند المزاوجة بين الكيانات الحقيقية الفعلية والكيانات التخيلية العجائية أحيانا والتي تفرض منطقا معنا في قراءتها كما هو الشأن في بعض النصوص العجائية التي تدمج في عوالمها التخيلية شخصيات أو أحداثا لها صلة بالواقع التاريخي المرجعي، وهي الوضعية التي تحتاج إلى أدوات خاصة للحفاظ على انسجام هذه العوالم وتفاعلها وهي تؤسس دلالتها. وعندما أشار جان فرانسوا ليوپار إلى أن "في كل خطاب تاريخي هناك محكي أسطوري كبير نفهم بواسطته كل ثقافة"⁽¹⁾، فإنه كان يدرك بالفعل التداخل المعقد الذي يربط الواقع بالتخييل، وأن المعرفة الإنسانية ترتبط عبر هذا النظام المركب الذي يؤلف بين كل ما تنتجه الذاكرة البشرية وهي تتلقى إشارات مباشرة أو غير مباشرة من واقعها الفعلي.

3- تركيب: محاولة في إعادة التأسيس:

نطمح ونحن نؤسس مفهوم التخييل عبر تصورات نظرية ومعرفية متعددة إلى وضع إطار منسجم له تتمكن من خلاله قراءة نصوص عربية تراثية لها طبيعتها الخاصة، لنتعرف الميكانيزمات المتحركة في اشتغالها وهي تنتج دلالة معينة. ارتبطت جل التصورات السابقة بالتخييل باعتباره محاكاة لأفعال واقعية أو أنه مخالف للواقع. وذهبت التداولية أبعد من ذلك عندما اعتبرت خطابا غير جاد. ولا حديثه هنا ليست نابعة من كذبه، لأن متلفظ التخييل ومتلقيه يربطهما ميثاق يؤشر على لا حقيقة الرسالة، بل هي مرتبطة بالدلالة غير الطبيعية التي يتضمنها خطاب التخييل، ويدعو متلقيه إلى فهمها وإدراكها.

بهذه الصورة يمكننا أن نؤشر على أن التخييل ليس بالضرورة أن يكون مخالفا للواقع أو منافيا له؛ فقد يكون جزءا من الواقع ويستغل أحداثا واقعية حقيقية ليمرر عبرها هذه الدلالات الضمنية التي يسعى إلى إبلاغها لمخاطبه. فما هو واقعي أو حقيقي يمكنه أن يستغل استغلالا تخييليا فيصبح جزءا منه، كما يمكن أن يتعاش التخييلي إلى جانب الواقعي بشكل متفاعل ومتداخل يساهم في إنتاج دلالة جديدة تمرر عبر رسالة تواصلية.

A. Gefen; aux frontières de la fiction. www.scienceshumaines.com. (1)

عندما نتأمل جانبا مهما من التحليلات السردية العربية القديمة ندرك هذا التفاعل المتميز بين الواقعي والتخييلي الذي ميز الثقافة العربية الإسلامية في القرون الوسطى. فاعتماد السند مثلا في إرسال مجموعة من الأخبار التخيلية يكون عاملا مهما في ربط جسور التواصل بين المرسل والمتلقي في العديد من النصوص السردية. ولهذا فخطاب الواقع كان حاضرا بقوة في مساحة سردية واسعة من السرد العربي القديم، دون أن يلتزم بالوثوقية التي يتطلبها الخطاب التاريخي مثلا؛ فكانت التخيلية مقوما مركزيا في العديد من الإنتاجات السردية التي اعتبرت حتى فترات متأخرة من التاريخ العربي الإسلامي خطابات واقعية مرجعية.

التخيلية في مثل هذه الخطابات لا تأتي من الزيف أو التحريف في الوقائع والأحداث، ولكن تتسرب إلى الوقائع عن طريق إفراغها من دلالاتها المرجعية لشحنها بدلالات جديدة تتلاءم وسياق إنتاج الخطاب، تأتي هذه الدلالة الجديدة إما بالتجاور بين أحداث واقعية وأخرى تخيلية لتكون الأخيرة مدعمة للأولى، أو بانتقائية في الوقائع المسرودة، تساهم في توجيه فكر المتلقي في اتجاه معرفة مقصودة، أو في مقارنة تخيلية بين وقائع حقيقية متفرقة تجمع في سياق واحد فتنتج دلالة مغايرة لدالاتها المباشرة.

إن التخييل الذي نروم مقارنته في هذه الدراسة هو المرتبط بالمحكيات الوقائية Récits factuels التي تتجلى في صورتها الأولى كسرود تنتج ما وقع وتعمل على توثيقه، لأن وظيفة التخييل هنا تكتسب خصوصية دلالية بما تضيفه على الأحداث والوقائع من دلالات ضمنية بعيدة عن دلالتها الطبيعية، والتي تستخلص من خلال السياق العام الذي أنتج فيه النص. فما وقع يكتسب دلالاته المباشرة الطبيعية من الملابس التي وقع فيها، لكن عندما يعاد إنتاجه في زمن مغاير، وفي سياق سوسيو - ثقافي مغاير يكتسب دلالة جديدة ترتبط بهذا السياق، وقد تكون علاقة رابطة بين الدالتين الأولى والثانية، وهي التي تشكل جسر المرور من الواحدة إلى الأخرى. وسنستعين في ذلك بما قدمناه في الفصل السابق من تصورات وأدوات تداولية تضمن العبور من الدلالة الطبيعية إلى الدلالة غير الطبيعية في النصوص التي نشتغل بها.